الحالة 108

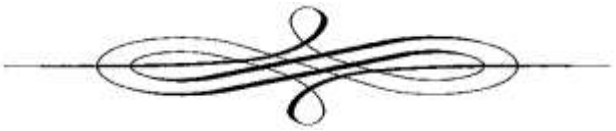

رواية

عنـــوان الكتاب: الحالة 108

اســـم المـؤلف: الزهراء درويش

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 4364 / 2022

الترقيـم الدولي: 0 - 366 - 998 - 977 – 978

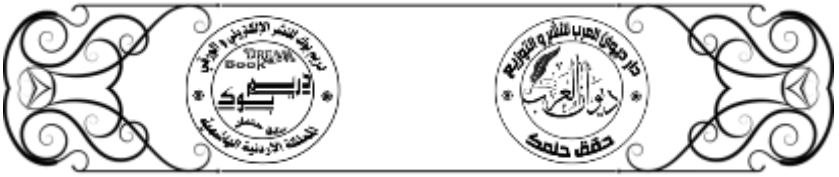

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين **تـصـمـيـم الغلاف: نعمة انور كريم**

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه **رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الثانيـة**

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

الحالة 108

رواية

الزهـراء درويـــش

حقوق حامكه

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى "ضحايا" المرضى النفسيين الحقيقيين، الذين لم يجدوا ساعي بريد يوصل رسائلهم وصدق مُعاناتهم إلى القُرّاء العاشقين للتفاصيل.

إلى الجُناة؛ العزاء الوحيد أنكم ستلتقون بضحاياكم يوم الحساب.

إلى المجني عليهم؛ لن تُعانوا وحدكم بعد الآن.. أنا ساعي البريد.

...

إلى كل الآباء والأمهات؛ اتقوا الله في أبنائكم، فيومًا ستلقون الله وتُسألون عن تقصيركم في حقوقهم كما سيُسألون.

...

إلى "شلبي" قطي المتعاون، الذي كتب معي الرواية حرفًا حرفًا وترك بصمته بين السطور.

...

إلى حاسوبي المحمول؛ شكرًا لأنك تحمّلت كم الألم الذي في سطوري، وكنت تمدني بالأمل وتمسح على قلبي حتى يهدأ؛ شكرًا لأنك احتفظت بملف الرواية بعدما فقدته حتى استرجعته ولم تضيّع تعبي، فشكرًا لله أولًا وأخيرًا.

"**الزهراء درويش**"

تنويـــــه!

أي كلام أو أفعال يخص أحد أبطال رواياتي؛ هذا لا يمت بقناعاتي الشخصية بِصِلة، وإنما تجسيد للشخصيات في الروايات، وخصوصًا أبطال روايتي هذه. فاللهم بلغت.

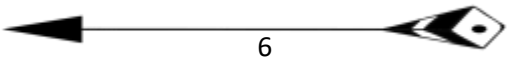

بإمكان العائلة أن تكون سلاحًا ذا حدين؛ إما أن تكون مصدر كل خير ينعم به أحد أفرادها؛ من حب، حنان، أمان، عطف، اهتمام، سند، حماية ودفاع، درع قوة، ثقة، إنصات وشعور بمدى أهميته واستحقاقه، وإما أن تكون مصدر كل شر يَفتكُ به، يُهددُ حياته، يُزعزعُ أمانه، يَنزعُ ثقته في ذاته والآخرين، يخافُ من كل شيء وكل شخص، يشعر بالهلع الدائم بلا سبب معروف، يشعر أنه مُهَمّشٌ، مُهمَلٌ؛ إذا غاب لن يشعر بغيابه أحد، لا يفتقده أحد، حتى إذا عاد بالظهور؛ لا أحد ينتبه لغيابه أيضًا، شفّاف غير مرئي! ظهره مكشوف كبيت بلا سقف في أحد ليالي ديسمبر؛ يغمره المطر، ويغتصبه الصقيع، وفي نهار آخر تلتهمه الشمس الحارقة، لا يوجد ضمان لسلامه النفسي ولا شعور بأي استقرار، ليس لديه ما يخسره ببساطة لأنه لا يمتلك شيئًا؛ أقصد شيئًا معنويًا حتى وإن كان ليس لثرائه حدود! هذه الاحتياجات لا تُقاس بالمال والسُلطة والنفوذ والشهرة مثلًا..

خواء الروح الذي تُسببه قسوة العائلة؛ لا يملؤه شيء أبدًا مهما تم التظاهر بالامتلاء حتى الاكتفاء! يمكن للأصدقاء الودودين أن يُخفّفوا من وطأة هذا الحدث الجلل، كما يمكن للانخراط في العمل أن يفعل، وممارسة الرياضات والهوايات؛ لكنها مجرد مُسكّنات للألم يا عزيزي، وتبقى ندبات الأهل مترسبة بداخل قنبلة موقوتة قابعة بداخلنا، نتحسسها من حين لآخر وكأننا نتطمئن لوجودها، وأنها لازالت هنا ولم تنفجر بعد!

نتمنى انفجارها ونخشى ذلك في الوقت نفسه! لأننا لا ندري تمامًا كيف ستتم هذه العملية وإلى أي نتيجة سنؤول إليها!

****

غرفة هادئة مظلمة إلا من أشعة شمس عنيدة تأبى الحبس خلف الستائر المعلقة على النافذة، فتتسرب إلى داخل الغرفة الصماء البيضاء؛ فراشها وألوان الحوائط وبلاط الأرضية والباب وكل ما فيها لونه أبيض، فهذا اللون الوحيد الذي يناسب نظرنا -نحن المرضى- إليه ولا يفقدنا أعصابنا أكثر، فالأسباب التي جئنا بها إلى هنا تكفي!.

نعم.. هنا مصحة لعلاج الأمراض النفسية والعقلية والإدمان! نحن ذوو الخلل النفسي والعقلي، لكل منا حكايته وأسبابه التي جاء بها إلى هنا -أو بالأحرى تم جلبهم بالقوة من أجل التخلص منهم شخصيًا وعقابهم أو علاج أمراضهم إن حَسُنَت النية- لكنني لا أعلم عن أحد شيئًا ولا أود العلم أبدًا، لقد اخترت العُزلة منذ زمن ليس ببعيد؛ لا أدري كم من الوقت مضى وأنا محتفظة بهدوئي هكذا وصيامي عن الكلام والنظر إليهم، ورفضي لأي تواصل بيني وبينهم أجمعين.. يتم حقن أوردتي بمهدئات على سبيل الاحتياط، كي أتعامل بآدمية حينما يتم عرضي على لجنة الفحص التي تحضر مرة في نهاية كل أسبوع أو شهر -لا أذكر بالتحديد فلقد فقدت الزمن منذ دخولي إلى هنا- لجنة مكونة من: طبيب نفسي، اختصاصي نفسي، طبيب مساعد، ممرض، مستشار تربوي وأُسري. هناك وقت مخصص لجلسة جماعية أولًا ثُمَّ من حق "الحالة" أن تختار كيف تستمر الجلسة؛ جماعية أو تتوسّم الخير والثقة في أحدهم وتشير إليه وينصرف البقية، ومن ثَمَّ تبدأ الجلسة الكلامية، وإما تحتفظ "الحالة" بصمتها فينصرفون جميعًا، أو

تقوم "الحالة" بأعمال شغب وتلجأ للهيستيريا على سبيل الرفض، ثُمَّ انهيار عصبي، ثُمَّ يتم حقن أوردتها بجرعة مُكثّفة من المهدئات حتى تخلد في سبات عميق ليوم أو أكثر..!

نعم اسمنا جميعًا مجرد "حالة"، رقم في قائمة كشف في ملف مُلقَى على طاولة صالة الاستقبال؛ "الحالة **108**" هكذا ألصقوا رقم غرفتي باسمي وكأنه اسم عائلتي الجديدة! أخيرًا انتميت لأحد؛ ولو كان رقم غرفة في مصحة نفسية! هنا صار كل شيء مألوفًا نوعًا ما، لا يعني هذا رضاي عن وجودي هنا، لكنه أقل ضررًا من وجودي في بيت أهلي على كل حال!

يتم التعامل معنا هنا كـ"مجانين" يخشون الاقتراب، يتحاشون النظر إلى أعيننا مباشرة، يلقون الوجبات فوق الأسرَّة من فتحة صغيرة في الباب ويصفقونه بسرعة كي لا نهجم عليهم ونقطّعهم إربًا.. هكذا يظنون! لسنا وحوشًا كاسرة أيها الحمقى! ليست كل الأمراض العقلية متساوية في الأعراض، لا أحد يكلف نفسه عناء الشعور بنا أو وضع نفسه محلنا ليشعر بما نشعر، أهلنا لم يفعلوا، فمَن يجرؤ على ذلك من الآخرين! ليس كل مريض نفسي؛ مختلًا عقليًا! أصلًا كل الناس مرضى نفسيين، كل ما هنالك أن أحدهم يعترف لكنه يكابر للوصول إلى مرحلة العلاج؛ خشية تسرب الخبر والفضيحة مثلًا! والآخر ينكر تمامًا فتزداد حالته سوءًا، بل ويرى عيوبه في الآخرين ويتهمهم بما فيه، فيزيد الخطر على مَن حوله وكل

مَن تعامل معه، والآخر يعترف ويلجأ للتدخل الطبي سواء كان علاجًا كيميائيًا أو جلسات كلامية، المهم أنه كلما بادر بطلب العون؛ كانت نسبة الشفاء أكبر وأسرع.

مخطئ مَن يظن أن على المريض وحده الخضوع للعلاج! بل لابد أن كل أسرته يخضعوا معه، ليتعرفوا على دوافع إخفاقه وأسباب نوبات انهيار أعصابه، بما أننا نعاني من فجوة بين ما نقوله وبين ما يفهمونه؛ إذًا وجب على الطب النفسي أن يمثل دور حلقة الوصل بيننا ويقلل هذا الخلاف إن لم ينهِه! فقط ذلك يحتاج إلى وعي أكبر، كيف يقتنعون بوجوب حضورهم ليكونوا مؤَهَلين للتعامل الآدمي معنا، وليس العكس؟ جدير بالذكر أن المرضى الحقيقيين؛ لم يتم جلبهم إلى هنا حتى الآن.. لازالوا في الخارج يدمّرون ضحايا آخرين، ثُمَّ ينتهي مطافهم إلى هنا؛ مثلي!

لسنا "مجانين" لكل فعل رد فعل، لا أحد يحب اللجوء للقسوة دون سبب، هكذا من تلقاء نفسه ينفجر غضبًا لأتفه الأسباب! هناك ابتزاز عاطفي؛ أن يضمن أحدٌ ولاءَك وإخلاصك وحُبك له فيظل يستنفد كل طاقتك فقط لأنك ستتحمل ولو أكثر من ذلك، ستتحمل في سبيل حبه! نرجسي أناني لا يرى سوى احتياجاته وفي سبيل ذلك يمكنه لو استطاع؛ سحقك بحذائه وهو مبتسم دون أدنى شعور بالذنب! ضغوط الحياة اليومية وضغوط نفسية، تراكم خيبات الماضي ومحاولة تجاهلها كأنها لم تحدث، اغتصاب الجسد

والحقوق، كذب، خيانة، نفاق؛ كلها أسباب تؤدي إلى الأمراض النفسية ومنها إلى العقلية إذا لم يتم الانتباه إليها وعلاجها سريعًا.

****

كجثة هامدة نائمة على فراشها الأبيض مُستسلمة، مُتّخذة وضع الجنين في بطن أمه؛ ملفوفة حول نفسي مُنغلقة على أسراري وخبايا روحي، يغطي وجهي شعر متوسط الطول أسود كظُلمة الليل مُموّج؛ تصففه الممرضة مرة في الأسبوع أو أكثر تقريبًا! بشرتي قمحاوية مائلة للسُمرة صافية ملساء كبشرة الأطفال، يعلو خدّيَّ نقاط نمش سوداء، ذات عينين بُنّيتين داكنتين مائلتين للسواد، يكسوهما رموش طويلة كثيفة وكحيلة، ذات ثغر رقيق وأنف مستقيم، نحيلة الجسم، طولي حوالي **165**سم..

لقد ميّزني الله بملامح طفولية لا تستحق أبدًا ما فُعِل بها!

اسمي "جود" لست بحاجة للكشف عن اسم أبي وعائلتي بالطبع؛ فهم تبرؤوا مني وانتهى بي المطاف إلى هنا، مجرّدة من كل شيء سوى عباءتي البيضاء، حتى اسمي تبرأ مني، وصرتُ "الحالة **108**"، أتممت عامي الرابع والثلاثين تقريبًا لا أدري متى بالتحديد، فلقد تخلصت من هاتفي بمجرد وصولي إلى هنا منذ شهور، ولا يوجد حولي أي تقويم يخبرني في أي يوم أنا فيه ولا كم فات على دخولي إلى هنا أو كم الساعة، وبالطبع أنا لا أسأل، عمومًا لن تكسبني الإجابة أي فائدة، المهم أنني تقريبًا هنا منذ ما يقارب السنة! أعرف بالمصادفة التمييز بين الصباح والمساء من أشعة الشمس التي تتسلل إليّ؛ هي الوحيدة المسموح لقاؤها بي دون تحفُّظ! كما أُميّز بين الصيف والشتاء.. فأنا لم أفقد إحساسي بعد!

كنتُ في السابعة من عمري طفلة جميلة جدًا، شكلًا وجوهرًا؛ مقارنة بأي طفلة من العائلة، كنت أحمل شخصية مستقلة ولديّ كاريزما واضحة جدًا يمكن لأي شخص أن يلتفت إليّ بمجرد دخولي مع أمي وإخوتي إلى أي مكان، أضحك للجميع، أتكلم بثقة عندما يُوَجَّه لي الكلام، كما كان يمكنني فتح الحوار مع مَن هم أكبر مني، كنت أكبر من سني "هكذا كان يتردد عني".

كنت طفلة مرحة، أحب اللعب لكن لم أكن أفعل الكثير من المشاكل، كنت أفكر مليًا فيما أفعل رغم صغر سني؛ محاولة لكسب رضا أهلي عني، ونادرًا ما كانوا يرضون رغم ذلك! كانوا دائمي النقد الهدَّام -سواء وحدنا أم أمام الناس؛ لم يكن يهم- لا يمررون موقفًا إلا ووجَّهوا لي الاتهامات والشتائم والضرب في أحيان كثيرة! لا أدري لماذا، بينما كنت في حاجة إلى مَن يضع يدي على الخطأ الذي ارتكبته ويناقشني بهدوء كي لا أكرره مجددًا.

كانت أمي وأبي في المقابل يصرخان في وجهي، أحدهما يلطم خدي مثلًا والآخر يكتفي بالشتائم! أحدهما يضربني بسلك كهربائي قديم -فهو على كل حال يؤلم أكثر من الحبل المجدول- والآخر يُقصيني في غرفة وحدي على سبيل العقاب! وكأنهم يكافئاني عندما أقضي وقتي معهما! إنهما يُذكّراني بالعقاب السياسي؛ كانوا في قديم الزمان يعاقبون المخطئ بالنفي خارج البلد، أما حديثًا؛ يمنعونه من السفر وكأن مجرد وجوده في أرض

الوطن عقاب! كنت أستغل فرص تواجدي وحيدة في الغرفة وأُسرف في التفكير في كل شيء، كنت أجلد ذاتي تارة -أحاسب نفسي على فعلتي وأتوب توبة نصوحًا وأبكي وأعزم على ألا أعود- وتارة أكتب كل ما حصل وأشكو للورق لأن إخوتي حضروا الموقف ولم يجرؤ أحدهم على الدفاع عني؛ لأنهم ببساطة لو فعلوا سيُعاقَبوا نيابةً عني! فلم أجد حينها فكرة الشكوى لهم مجدية! كنت أكتب وأمزج كلماتي بالدموع وأسُبّهم جميعًا، ثُمَّ أمزق الورق وأتخلص منه فورًا كي لا يفتضح أمري ويتمادوا في عقابي.

الكتابة علمتني الخيال الواسع؛ فقد كنت أكتب ما حدث وما أتمنى حدوثه أيضًا، لم أكن قاصدة الكذب بالتأكيد، فعلى كلٍ أنا الوحيدة التي تقرأ؛ مثلًا كنت أكتب أني أعيش مع أهلي في هدوء، لا يضربوني ولا يلطمون خدي ولا يسخرون مني أمام الناس، أمي تعشقني كثيرًا وتُفضّلني على إخوتي وتحكيلي القصص وتُدلّلني، وأبي يصحبني معه إلى أي مكان ويفخر بي أمام أصدقائه ويكافئني بسبب وبدون.. وهكذا.

إلى أن تطور معي الأمر ذات يوم وذهبت إلى صديقتي في المدرسة أحكي لها ما حدث لي بالأمس، فبَكَت وتعاطَفَت معي وراحت تحكي لأمها، ثُمَّ جاءت أمها لتأخذها بعد انتهاء اليوم الدراسي في اليوم التالي، ووجدتُ صديقتي تشير إليّ من بعيد، وتقترب مني هي وأمها، تقدمَت أمها وابتسَمَت لي، فابتسمتُ بدوري، قالت لي: أأنتِ جود؟

كان من الواضح أن صديقتي حكت لها كل شيء قلتُه وأصبَحَت تعرف عني أكثر من اسمي، هكذا ظهر على جديّة سؤالها.

أجبتها: نعم.. فاقتربت مني أكثر وعانقتني وبَكَت ولامست خدي بحنان وانصرَفتا!

أخيرًا وجدت من تعاطف مع قصتي، فلجأت إلى الخيال ذاته؛ لكنني هذه المرة حكيت لصديقتي بدلًا من الورق، لكنني كنت أحكي لها ما حدث بالفعل وأزيد عليه مسحة من الحبكة الدرامية كي تتعاطف أكثر وتجلب لي أمها تعانقني وتحنو عليَّ كل يوم! طالما لم أجد الحب والدفء بداخل بيتي سأبحث عنه خارجه بطريقتي.. المهم أن أحصل عليه بكل حال! كنت أتفنّن في جذب اهتمام الناس بي، هكذا كانت خطة طفلة ذكية في صفها الثاني الابتدائي! لكن انقلب السحر على الساحر! ولم تسِر الخطة وفقًا لتخطيطي أبدًا! بما أنني كنت أهاتف صديقتي على هاتف المنزل كل يوم بعد عودتي والانتهاء من واجباتي المدرسية؛ إذًا أصبحَت أمها تعرف الرقم جيدًا، ولذلك قامت هي بالاتصال بنا هذه المرة؛ ولسوء حظي أجابت أمي.. كانت أم صديقتي تتكلم وتبكي بانهيار، وأمي تنظر إليّ في دهشة وتشير بيدها إشارة وعيد، كانت لا ترد عليها، فقط تسمع، كنت أتمنى أن ترد أمي بأي كلمة لأُخمّن ماذا تقول في الطرف الآخر، لكنها فضّلَت الصمت! وطلَبَت من أمي أن تتبنّاني وبدلًا من أن يكون لديها طفلة -صديقتي- سيكون لها طفلتان ستقوم بمعاملتهما نفس المعاملة ولن تُفرّق بينهما أبدًا وظلت تُقسم على

ذلك -هذا ما قالته أمي فيما بعد وهي تعاقبني على كذبتي مرة وعلى إفشاء أسرار البيت للغرباء مرة أخرى!- لكن أجابت بجملة واحدة وأنهت الاتصال على الفور: "ابنتي كاذبة فيما قالت لا تصدقيها أبدًا ولا تتعاطفي معها، هي كذلك دائمًا ذات خيال واسع أكثر من اللازم ودائمًا ما تفضحنا وتحرجنا أمام الناس!" لم تقل لها أن ثلاثة أرباع الحكاية صحيحة وربعها فقط من وحي خيالها.. قالت كله كذب! وانهالت فوق جسدي الصغير بالضرب بكافة الأسلحة الفتّاكة؛ كالحذاء والعصا والسلك المذكور أعلاه! لم تكتفِ بذلك طبعًا، فلابد أن تبالغ في تعذيبي كي تضمن عدم تكراري لتلك المصيبة مجددًا، بل انتظرت عودة أبي من العمل وقصَّت عليه الحكاية كلها ليقوم بدوره بعقابي هو الآخر -هكذا كان مفهوم العدل لديهما؛ كل منهما يعاقبني على حدة، لكنهما يكافئاني معًا!- فقام بربط يديّ وقدميّ بالحبل المجدول إياه وضربني بالسلك ذاته حتى فقدت أعصابي وتبوّلت مكاني! هنا كانت الطامة كبرى؛ فلقد تم عقابي على ذلك أيضًا! كيف لا أطلب دخولي إلى الحمام وأنا مربوطة بدلًا من فعلتي القذرة؟!

ظللتُ من وقتها وحتى خمس سنوات تقريبًا حتى وصولي للصف الأول الاعدادي؛ مُصابة بالتبول اللا إرادي أثناء نومي! وما أدراك! كم ليلة صرخوا في وجهي إذا وجدوا فراشي مُبتَلًا؟ كم مرة سخروا مني وجرحوني أمام إخوتي؟ كم مرة أفشوا سري أمام الجيران والأهل وكل من تفضّل وقام بزيارة بيتنا الجميل! كان مبررهم لفعلتهم المشينة؛ أنهم يبحثون لي عن حل

وكأن الناس كلها صاروا أطباء فقهاء علماء فجأة! لم يكلفوا أنفسهم عناء عرضي على طبيب حقيقي ليجد لي العلاج الأمثل بعيدًا عن نظرة الاشمئزاز والتنمر والأذى بالتلميح والتصريح والتجريح التي كنت أتلقاهم كلما قابلت منهم أحدًا! كنت أتعمد السهر كي لا تغفل عينيَّ وأنام وأُبلل فراشي وأُعاقَب وأُفضَح صباحًا؛ فكنت أُعاقَب على السهر! كنت أكره المبيت عند أقاربي كي لا أُفسد فراشهم ويشمئزون مني أكثر! ورغم ذلك كنت أذهب عندهم تحت التهديد! ومن شدة خوفي واضطرابي من نومي كنت كلما شعرت بالنعاس؛ جريت في أرجاء البيت، وذهبت للحمام لأغسل وجهي وأفتح عينيَّ في الماء كي أفيق ويذهب النوم عني! حتى أُصبتُ بالأرق المُزمن، بعد أن نُقِشَت الهالات السوداء حول عينيّ!

جعلت أفكر في حل لمشكلتي طالما الجميع يتنمر ويجرح دون عرض المساعدة أو حلول منطقية للعلاج! لم يكن هنالك "جوجل" لأبحث فيه عن العلاج، فظللت أفكر حتى خمّنت حلًا مناسبًا؛ وهو قبل نومي ببضع ساعات أمتنع تمامًا عن شرب الماء حتى تفرغ مثانتي تمامًا وبذلك لن يتواجد بها ما ينسكب أثناء نومي! وأن أقوم بضبط منبهي كي يوقظني كل ساعتين على الأقل كي أتأكد من إفراغها تمامًا.. وبذلك شُفيت! لكنني كنت أُعاقَب على إزعاج المنبه كل ليلة وأنني أوقظ الجميع بلا داعٍ!

تحوّلت من طفلة مرحة، ذات شخصية قوية قيادية اجتماعية، إلى كتلة صمت بداخل البيت! كنت أبتعد تلقائيًا عن كل مَن يعرفني إذا قابلته

مصادفة في الطريق؛ فأنا لا أدري ماذا يعرف عني بالضبط! بدأت أنتقم لنفسي بطريقة إيجابية ورحت أبالغ في التعرف على ناس جديدة؛ كنت تقريبًا زميلة ودودة لكل الطلبة في مدرستي؛ -على مدار مرحلتي الابتدائية كلها-، سواء أصغر أو أكبر مني، بنات وبنين، حتى مُعلمين صفي والصفوف الأخرى رحت أتعرف عليهم وأكسب ثقتهم حتى كانوا يقومون بتكليفي بوظائف غاية في الأهمية؛ كتحضير الدروس في دفاترهم وكتابة ما يملونه عليّ -نسبة لخطي المُنسَّق الجميل- ، أخذ الغياب، الوقوف بدلًا منهم في الفصل ومنع شغب زملائي، -لأن المُعلّمين كانوا يضمنون انصياع زملائي لأوامري نسبةً لشخصيتي القيادية، فقد كنت أثناء اللعب معهم أُقسّم الأدوار وكل منهم يأخذ دوره دون نقاش ونلعب معًا في خطة مُحكمة قد قمت بوضعها وهكذا دومًا كنت أضع الخطة ويقومون بتنفيذها حُبًا وثقةً في نجاح خططي- كما كنت أقوم بشرح الدرس بدلًا من المُعلمين في أثناء وعدم وجودهم، كما تم ضمي لفريقي الشرطة، والإذاعة المدرسية وفريق الصحافة ومساعدة أمينة المكتبة وفي المقابل كنت أستعير منها الكتب دون الحاجة إلى بطاقة عضوية أو الرجوع إليها وبالتالي لا يوجد حد أقصى لمدة وجود الكتاب معي كما كان يُشترَط على باقي الطلاب! كما انضممت لفريق المسرح كنت أقدم زملائي للعرض سواء بداخل المدرسة أو خارجها، وأبدأ الحفل الختامي للعام الدراسي بقراءة بضع آيات من القرآن الكريم لحُسن صوتي وفصاحة لساني وانعدام أخطائي -تقريبًا- كما أخبرني أستاذ

مادة اللغة العربية، كنت أكتب اسمي في كل قوائم النشاطات المدرسية، بهذه الطريقة كنت أُعوّض ما يحدث بداخل البيت، أحببتُ جدًا أن الكل صار يعرفني ويهتم بي ويحترمني؛ بداية من مدير المدرسة وحتى حارسها.. الآنسة الصغيرة متعددة الهوايات والمواهب وذات الشهرة الكبيرة وهي لازالت في الصف السادس الابتدائي؛ هكذا كان يتردد عني أو يُقال لشخص يراني لأول مرة.

كنت فتاة ثرثارة لا يرتاح لساني بداخل فمي أبدًا والضحكة لا تفارقني والبسمة لا تزول عن شفتيّ ما دمت خارج البيت! لكنني عندما أعود؛ أرتدي ثوب الخَرَس فورًا! كانت علاقتي جيدة جدًا بإخوتي؛ نلعب، نضحك -لكن بصوت خافض كي لا ينهار سقف البيت فوق رؤوسنا!- كنت أحفظ القصص التي أجلبها من مكتبة المدرسة وأقرؤها عليهم عن ظهر قلب، وأُمثّل لهم المشاهد حتى أثير ضحكاتهم، كنت كذلك أنصت لحكاياتهم وأحداثهم خارج البيت، كنت صندوق أسرار الصغير منهم والكبير، فلا أحد منهم يجرؤ على قول مصائبهم تلك أمام أبينا وأمنا بالطبع.. فالعواقب معروفة، سيتم عقابهم بالطريقة نفسها وبالتأكيد سأُعاقَب معهم لأنني تستّرتُ على مجرم هارب من العدالة!

لماذا يتوقع الآباء من الأبناء؛ العصمة من الخطأ؟! مهما كان الخطأ بسيط؛ فهو ممنوع ولن يقبلوا به أبدًا، لا توجد أي مساحة للغلط، نحن غير مقبولين عندما نُخطئ، يتم نهرنا ونبذنا وجرحنا بشتى الطرق، لكن

عندما نهدأ، ونطيعهم كما ينبغي أن تكون الطاعة ونخدمهم على الوجه الذي يرضون عنه؛ فنحن عندئذ مقبولين!! فهو حب مشروط؛ إن أحسنتم؛ نحبكم، وإن أسأتم؛ فلا!

كانوا يُنسبوني إليهم وقت نجاحي بالتفوق الذي أستحقه وحدي، لكنني عندما أفشل؛ يُنكروني، يبتروني كأنني عضو مُسرطن! عندما أنجح يقولون: "ابنتنا"، وعندما أخفق يقولون: "هي"!

نحن أربعة أبناء؛ ولدان وبنتان، كانت علاقتي قوية جدًا بأخي الذي يكبرني بعامين وأختي التي تصغرني بعامين -أحيانًا-، لكن علاقتي بأخي الأكبر كانت مقطوعة أصلًا من قبل أن تبدأ؛ قبل ذلك بخمس سنوات، بعدما عوقبت لكذبي على صديقتي وأمها، أخذني أخي الكبير من يدي، وراح يهدهدني ويمزح معي في غرفته حتى توقفت عن البكاء تمامًا وشعرت بالأمان أخيرًا ونمت بين ذراعيه، واستيقظت على مشهد لن أنساه أبدًا ما حييت؛ أخي ابن أمي وأبي يغتصبني! لم أكن أفقه شيئًا حينها! ماذا يفعل ولماذا؟ كل ما كنت متأكدة منه أنه يفعل شيئًا قبيحًا جدًا، بدليل أنه أغلق باب غرفته بالمزلاج من الداخل ولم يكن يراه أحد! انتفضتُ بسرعة ولبست ثيابي وفتحت الباب ورحت أحكي لأمي وجسدي الصغير ينتفض من الخوف والبرودة تسري في أطرافي، فاجَأتني برد فعلها؛ لطمتني على خدي واتهمتني بالكذب والخيال الواسع كعادتي! حتى لم تكلف نفسها عناء

البحث والرقابة على أخي! لم تأخذ الخبر على مَحمل الجد مع الأسف؛ وهنا كان أول عهدي مع الخذلان! رغم أني شرحت لها بالتفصيل ما كان يفعله، صرخت في وجهي: اخرسي يا كاذبة يا عديمة الحياء والأدب.. حذارِ أسمعك تكررين هذا الحديث مرة أخرى حتى لو في سرك، وإياك أن تخبري إخوتك أو أي شخص وبالذات صديقتك وأمها! هذا كل ما كان يهمها! لم يخطر ببالها مثلًا كيف لطفلة في السابعة من عمرها أن تخلق موقفًا كهذا في خيالها من العدم؟! انتهى الحوار عندئذٍ مما جعل أخي يتجرأ ويكررها! كنت معه في البيت وحدنا لسوء حظي، لكن في هذه المرة رفضت أن يقترب مني، أصلًا من وقتها وأنا أخشاه وأشعر تجاهه بالاشمئزاز والقرف والخوف وكل المشاعر السلبية، وهذا ما لم يكن رادعًا أبدًا لفعلته بل بالعكس كان محفزًا ليعيدها! حاولت التملّص والفرار منه، لكن ما سأقوى على فعله أمام هذا الوحش الحقير الضخم الذي يكبرني بإحدى عشر عامًا؟! استطاع بكل بساطة أن يفعلها ثانية بعدما كتم فمي بشريط لاصق وربط يديّ بقوة! ولم يكن وحده! بل خالي الأصغر كان معه يساعده! عمرهما متقارب، وهما أصدقاء منذ صغرهما، يبدو أنهما اتفقا عليّ وأن ميولهما واحد، والحقارة تجري في دمهما!.

أمي لم تصدقني وضربتني عندما أخبرتها عن فعلة ابنها؛ ماذا سيكون جوابها يا ترى عندما أخبرها فعلة أخيها أيضًا؟! سيكون ردها أقسى بالطبع لكن عليَّ أنا! فلقد اعتدت أنهم يخطئون وأدفعُ الثمن وحدي!!

جريمة كاملة الأركان.. ورغم ذلك لا يوجد دليل لإدانة الجُناة!! لا أحد ينصت، لا أحد يُصدّق، فبالتالي لم أخبر أحدًا هذه المرة! كل ما كان يجول بخاطري حينها؛ هل يفعلان ذلك مع أختي الصغيرة ذات الخمس أعوام؟! ظللت أرتجف هذه الليلة خائفة منهما ومنهم أجمعين، ظللت أُبالغ في غسل جسدي وأنا أستحم كي أمحو آثار عُهرهما من فوق جسدي! كنت أتمنى حينها أن تنشق الأرض وتبتلعني أو يأخذني الله، أو تكرر أم صديقتي عرضها وتأخذني ترعاني مع ابنتها! هناك سأحيا بأمان بالتأكيد!.

أحيانا بسبب سوء معاملة الأهل وجهلهم بمعنى التربية وتعنّتهم وقسوتهم في الحكم عليك؛ تضطر أن تثق في الغرباء مهما كانوا، بالتأكيد لن تجد أسوأ منهم!، وفي الوقت ذاته لابد أن تثق بأحد، كيف لك أن تنشأ في عالم من المفترض أن يكون عالمًا هادئًا ومليئًا بالألوان والضحكات والألعاب والبراءة دون أن تجد أيًا من ذلك سوى مع الغرباء فقط خارج البيت!
كانت أسوأ أيامي على الإطلاق هي إجازات نصف وآخر العام ونهايات الأسبوع؛ الأوقات التي اضطر فيها إلى المكوث في البيت طويلًا، ولاسيما عندما يزُرنا خالي! كنت أشعر أنني لا أنتمي إلى هذا البيت ولا هو قادرٌ على احتوائي، كنت أنظر لحوائطه وأترك لخيالي العنان فيوحى إليّ أنها تبكي وتواسيني وتتحدث معي!.

كانت لدي دمية أهداني إياها أحد أقاربنا كانت كبيرة جدًا، تساويني في الطول تقريبًا، فاتخذت منها صديقة وأختًا وحبيبة وصندوقًا لأسراري، كانت تسمعني باهتمام وتنظر لعينيّ مباشرة وتصدّق كل ما أقول! كنت أصطحبها معي في كل مكان، خصوصًا أنني رفضت رفضًا قاطعًا أن تتركني أمي مع إخوتي وتأخذ أختي الصغيرة فقط معها في أي مكان تذهبه، كنت أبكي وأصرخ وأتعمد أن أبالغ في ذلك ليأخذاني معهما كي لا يؤذيني ابنهما وأخيها -نعم ابنهما وليس أخي، أخيها وليس خالي، فلقد تبرأت منهما أبدًا!- فسَّرَت هي وأبي تصرفي بالطبع على أنني أغار من أختي.. لكن لا بأس المهم أنني كنت أحصل على نتيجة مُرْضية بعدما يعاقباني طبعًا على صراخي وبكائي غير المُبَرَّر من وجهة نظرهما!

كانت علاقتي ممتازة بالجيران، بالفعل كنت محبوبة لدى الجميع، كنت أزورهم وألعب مع أبنائهم ولاسيما في عدم وجود أمي في المنزل، كنت أُفضّل الإقامة عند الجيران على وجودي مع ابنهما، وبالتدريج صاروا يصطحبوني معهم عند أقاربهم وللحدائق وما شابه، وكنت أستحسن الفكرة وأُفضّلها على خروجي مع أهلي! كنت أتحاشى النظر إليه والتواجد معه في مكان واحد، كنت أستغل كل الفرص التي تبعدني عنهم جميعًا، ما حاجتي لأناسٍ لا ينصتون وإذا سمعوا؛ لا يفهمون، وإذا فهموا؛ لا يُصدّقون ولا يُحسنون التصرف؟! ما حاجتي بأم لا تعرف عن الأمومة شيئًا؟ وتخلط بينها وبين الرعاية؛ تهتم فقط بصنع الوجبات وما بعدها من تسالي! تزيد عدد قطع

ملابسنا في الشتاء وتنقصها في الصيف! كل الناس يمكنهم فعل ذلك بسهولة، ما الذي يميّزكِ بالأمومة إذًا؟! كل الحيوانات يمكن أن تُرعَى بالطريقة نفسها! ما الذي يُميّزنا أننا بنو آدم؟ أناس لهم احتياجات غير الطعام والشراب بالإضافة إلى الدواء والتعليم!! قسمًا بالله هناك فرق بين الرعاية والأمومة! الخادمة يمكنها رعاية الأطفال، الخالة، العمة، الجارة، الجدة..... كنت أبحث عن الأمومة فيهن أجمعين.. لكنني لم أجدها إلا بنسبة ضئيلة جدًا، أقل من احتياجي لها بكثير، ورغم ذلك يؤسفني أني وجدتها خارج البيت!

كنت كلما أشكو لها تعبي من شيء ما أو من مرض ما؛ تجيبني أنها أيضًا مُتعبة وكل الناس مُتعبين ولست وحدي، لكنهم صامتون حامدون خالقهم، فلذلك يجب عليّ أن أتوقف عن الشكوى أبدًا وأحمد الله؛ حتى جعلت منّي كائنًا متبلّد الإحساس لا يمكنه التعبير عما يشعر!.

****

نعود لبعد ذلك بخمس سنوات..

كان خبرًا سارًّا للجميع عدايَ؛ زفّت أمي خبر حملها الخامس! كنت كما أخبرتكم حينها في الصف الأول الإعدادي، في الثانية عشر من عمري تقريبًا، لكنني كنت مازلت صغيرة لأتحمل صدمة كهذه! بالتأكيد من حق الجميع أن ينعم بولادة طفل جديد، لكننا لسنا كأي بيت؛ ستكون ولادة طفل خيرًا له ولهم! ما الجديد الذي سيقدموه له؟! كنت أمقتهم بالذات في هذه اللحظة! لماذا أنجبتونا جميعًا؟! أوليس اهتمامكم بطفل واحد خيرًا لكم من شعور كل أطفالكم بالضياع، على الأقل واحد مُعَقّد نفسيًا خير من خمسة!

ولاسيما أن أبي في هذه الأيام بالتحديد ولا أدري ما السبب وراء ذلك؛ تقاعد مبكرًا من عمله! مما زاد الأمر سوءًا، هذا معناه أننا سنراه كثيرًا وهذا لو تعلمون عظيم وشيء يدعو للانهيار التام!

كان قبل ذلك يشكو من كثرة طلباتنا وقلة دخلنا، رغم أن ابنهما الأكبر كان يعمل -أحيانًا- ويتحمل ثمن طلباته و-أحيانًا- يقوم بشراء طلبات البيت التي تمليها عليه أمي. يعني لم يكن يتحمل سوى بعض طلباتي أنا وأخي -أغلب الوقت-، أما أختي فكانت مدللة جدًا ولا تكف عن الطلبات بحق، أما أنا وأخي كنا ندخر مصروفنا وفي نهاية كل أسبوع أو شهر يأخذ كلا منا -بالتبادل- كل النقود ونشتري كل ما ينقصنا دون إخبار أحد، على حسب ثمن ما نود شراءه، كنا ندخر مبلغًا صغيرًا جدًا في فترة طويلة

جدًا وذلك لقلة ما يمنحنا أبونا من مصروفاتنا الأسبوعية! ورغم ذلك كنا راضين وغاية في الانسجام والتفاهم، هو الوحيد الذي كان يعطيني بصيص أمل أنه ربما سيصبح كل شيء على ما يرام في يوم ما! كان يشبهني كثيرًا، قلبًا وقالبًا، وجد هو الآخر كيانه خارج البيت مع أصدقائه ومعارفه، وبعدما ندخل أنا وهو إلى البيت نتبادل الحكايات عن يومنا خارجه كيف صار ومن قابلنا ومع من ضحكنا وهكذا.. وما إن أنهى دراسته الثانوية إلا وحصل على عمل وصار مسؤولًا عن نفسه وعني، لأن أبانا أقسم أنه غير مسؤول عن طلباتنا من يوم التقاعد وحتى ذلك الوقت! أصلًا لم نكن نطلب لأن لدينا كرامة وعزة نفس عظيمة، كنا إذا اضطررنا إلى طلب شيءٍ منه؛ كان يعطينا أحيانًا، ويرفض أخرى، ورغم ذلك كان يُتبع صدقته بالمَنّ والأذى! رغم أنّ ذلك فرض عليه وليست صدقة نافلة!

كان ذلك قبل التقاعد، يمكنكم طبعًا توقُّع كيف صار الحال بعده!

مرت الشهور والسنوات ثقيلة لكنها مرت.. والحال لا يزداد إلا سوءًا! الخبر الوحيد السار؛ أن ابنهم الكبير تزوج وانتقل للعيش في بيت منفصل عنا ولن أراه كثيرًا سوى بمحض المصادفة.

أصبح معاش أبي لا يكفي وأسعار كل شيء في زيادة، وعند كل بداية شهر تُشَنّ حرب الفواتير في بيتنا الدافئ! فاتورة الكهرباء بكذا، والغاز بكذا، والمياه، وزيادة الإيجار بكذا وكذا، صار يُحمّلنا نتيجة تقاعده وقلة دخلنا! ما ذنبنا؟ لا أعلم ولا أود أن أعلم! نحن لم نكن فقراء، لكنّ أبانا لم يسعَ

للغنى، أو على الأقل تحسين مستوى معيشتنا دون اضطرارنا إلى العمل وتحمل المسؤولية مبكرًا جدًا!

وبالتالي ما إن انتهيت من دراستي الثانوية إلا والتحقت بعمل أنا الأخرى، كنت أعمل طوال أيام الإجازة وأدخر رواتبي حتى أستطيع أن ألبي احتياجاتي في دراستي الجامعية وبعض طلبات أختي التي كان يشاركني فيها أخي، لأن طلباتها كانت أكثر من الجزء الذي خصصه أبي لها من معاشه بالتأكيد، ولأنها غير مسؤولة مع الأسف ولم تدرك حجم الأزمة التي نمر -أو نعيش- بها، أخبرتُها ذات يوم بالتفاصيل، أجابتني وليتها لم تقُل لأنها كانت محقة في قولها: نحن دائمًا نمر بأزمة مالية، ما الجديد؟!

كنت على اتصال بأخي طوال الوقت أخبره بكل التفاصيل ونتبادل المشورة ونتحدث ونضحك وننهي المكالمات، حتى كل أصدقائي في العمل اتهموني على سبيل المزاح بأنني على علاقة بشاب وأنني خائنة عميلة كي أختار من خارج العائلة الصغيرة هذه ولم أمِل إلى أحدٍ فيهم، كما اتُّهِمَ أخي بالشيء ذاته، مما أثار الضحك والشقاوة أكثر هذه الأيام.. هكذا كنا نخفف عن بعضنا البعض التوتر المستمر داخل البيت! فكرت أن أبوح إليه بسري الذي يخص أخيه الأكبر أيضًا، ولا سيما أنه لاحظ بالطبع سوء معاملتي له ولم أكن أجيب وأخبره عن السبب الحقيقي في كل مرة، لكن سرعان ما تراجعت، فقد مرت السنوات على كل حال، لكن رغم ذلك مازال أثره يكشط فؤادي ويُدميه، ويملؤني شعورًا بالاشمئزاز أكثر من كل جنس بني آدم عدا أخي

بالطبع. كنت أود الإفصاح عن سرّي كي أسقط عن عاتقي حِملًا كالجبل، حتى لو لن تُحَل المشكلة؛ فأحيانًا يجب علينا الإفصاح فقط لنحيا بوَزْنٍ أخفّ، ومن الصعب أن نعيش حياتنا دون أن نجد قلبًا حنونًا وعقلًا ناضجًا مُتَفهّمًا نبوح له بأسرارنا! ورغم ذلك قررت الصمت!

أبي لا يحسن التعامل معي أبدًا، لقد دمر الطفلة البريئة بداخلي، لا يفقه سوى الصراخ والعنف والأذى الجسدي والمعنوي، وابنه الراشد الذي من المفترض أن يحميني من شر كل الناس؛ صار هو الشر الوحيد الذي يلاحقني حتى في أحلامي التي ما صارت إلا كوابيس، وأخو أمي الذي هو الخال في محل الوالد كما يُشاع دومًا؛ صار ذئبًا مفترسًا ووجب عليَّ الفرار منه لا الفرار إليه كما يجب في الأحوال الطبيعية! رجال عائلتي الذين هم صُلبي وسَندي وحمايتي وأماني؛ لم يكونوا كذلك يومًا ولن يكونوا أبدًا! بل باتوا العكس تمامًا، لقد فقدت الثقة فيهم وفي كل أبناء آدم على سبيل الاحتياط! مَن يدري ماذا سيحدث مجددًا! كنت أتمنى ألا أُصاب بداء "التعميم" لكنه ليس بيدي، لقد أُجبرت على ذلك وصرت أخشى الجميع دون استثناء، هكذا ضمنت سلامي نوعًا ما، ورغم ذلك لا يوجد ضمان لأي شيء في هذه الغابة التي نموت فيها!.

أما عن أخي الجميل، لم أعتبره شخصًا منفصلًا عني، هو ليس إلا انعكاس صورتي في المرآة، توءمي الذي وُلِد قبلي بعامين وانتظرني حتى آتي وتمتزج خلايانا مجددًا.

حاشا لله أن أعيش أنا وأخي في ظلام سرمديّ، بالتأكيد مرت علينا لحظات جميلة كثيرة، لكنها لم تكن سوى مجرد ومضات خفيفة تمر كشعاع أبيض في ذلك الظلام وسرعان ما ينطفئ ويتلاشى أثره! يظهر في سمائنا بالتأكيد ونحن خارج نطاق البيت!

هذا لا يعني أن المكوث خارج البيت كالخلود في الفردوس الأعلى! بل كان العمل والناس والشارع أقل سعيرًا من جحيم البيت ليس أكثر؛ فلقد حدث نزاع بيني وبين مدير العمل أكثر من مرة، كنت أجيبه بطريقة حادة لأنه كان ظالمًا؛ يُلزمني بأعمال معينة فأُنجزها، ويزيد أعداد المهام باعتبارها عملًا إضافيًا براتب إضافي وبالتالي كنت أعمل وقتًا إضافيًا - كنت أقبل كي يتسنى لي المكوث خارج البيت أطول وقت ممكن، وعلى كل حال لقد وعدني بإضافة حوافز وبالطبع كنت أول الحاضرين وآخر المنصرفين- كنت أحكي لأخي بعض التفاصيل وليست كلها، كنت أخشى أن يتورط معهم ويأتي للتعدي عليهم ليستعيد حقي وكرامتي.

لكن ذات يوم.. في نهاية شهري الرابع بالتحديد، كان يوم نزول الرواتب، رحت لأستلمه كباقي زملائي، فلم أجد أي زيادة كما وعدني في نهاية الشهر السابق؛ أن هذا اليوم سيمنحني زيادة الشهرين معًا! فلم أجد شيئًا، لا حوافز هذا الشهر ولا الشهر السابق، فقط راتبي.

كنت أتحمل سخافته وبعض الزملاء كي أنعم في نهاية الشهر براتب كبير يقضي حوائجي وبعض طلبات أختي ومصروفات جامعتي، لكن يبدو أنه

استغل صبري أسوأ استغلال! ماذا أفعل؟ بمن أستغيث؟! أخاف على أخي فهو شاب دمه حار جدًا ويحبني بل ويعشقني ولا يُطيق عليّ أقل بأس، فما بالك لو علم بأمر سخافتهم واغتصابهم حقي!

كنت أرى في كشف الرواتب؛ حوافز يتم توزيعها على زملائي الذين هم أواخر الحضور وأوائل المنصرفين من العمل! يا ترى ما السبب؟ ولا سيما أن جميعهن فتيات، ماذا يقدّمن للعمل أكثر مما أقدمه؟! ماذا يمنحن لصاحب العمل ورفضتُ منحه أنا ووضعته عند حده! كنت أشعر بالقهر وأشد درجات الظلم.

بكيت كثيرًا.. ولم أُجِب على اتصال أخي كما اعتاد أن يهاتفني لحظة خروجي من العمل ويظل معي على الهاتف حتى يطمئن لوصولي إلى البيت - بحُكم عمله الذي يُحتّم عليه بقاءه لمدة أسبوع متواصل، فقط إجازته يوم في نهاية الأسبوع يقضيه معي-

ظللت أبكي.. خطرت ببالي فكرة ورغم ذلك كنت مترددة كثيرًا لاختيارها كحل أمثل! لكن لم أجد غيرها فقررت تنفيذها..

ذهبت لأبي أقص عليه الحكاية كلها -لكن دون الخوض في تفاصيل لا تسمن ولا تغني من جوع- ليأتي معي ويأخذ حقي بأي طريقة، ظل ينظر لي ببرود ولا توجد على ملامحه أي إشارة تشعرني أنه سيساعدني ويُنصفني!

أجابني بالبرود ذاته: الحوافز ما هي إلا زيادة على راتبك، أي أنها نافلة وليست فرضًا، نحن نعمل كي نأخذ حقنا فقط الذي هو الراتب الأساسي الفرض على صاحب العمل، لكن الزيادة هي فضل منه وليس فرضًا عليه!

قلتُ: لكنه وعدني مرتين!

قال: حسبكِ الله.. لقد وعد وأخلف، ماذا نفعل؟!

شعرت بقهر مضاعَف، انقسم ظهري أكثر، لكن لا أخفي عليكم سري؛ كنت أبصر هذه النتيجة لفكرتي لذلك كنت مترددة.. لكن حقًا لم أجد حلًا آخر لمشكلتي.. متى لجأتُ إليه وأنصفني أصلًا؟! دائمًا يقف في صف كل الناس ضدي لا أدري لماذا؟ كان دومًا يختار الحلول السهلة التي تُبقيه بداخل صمام الأمان! لا مجازفة، لا مشاكل، لا صراعات يهين بها ذاته، ولا حتى حكمة لاسترداد الحقوق المنهوبة! يبدو أن أبي يخشى المطالبة بالحقوق، وأنا بطبعي لا أكُفّ أبدًا عن المطالبة بحقوقي، لذلك كنا وسنظل دائمًا في صراع وغير متفقين أبدًا!

كنت أعرف قانون العمل الذي ينص على أن الزبون دائمًا على حق مهما كان، لكنني ابنته! وهو ليس رب العمل! ومديري ليس زبونًا!!

لحُسن حظي.. كنت في نهاية الأسبوع، أي موعد إجازة أخي..

كنت مترددة هل أخبره أم لا.. من شدة ارتباطنا ببعضنا شعر بالطبع أن لديّ شيء أود إخباره به، رأى ملامح القلق والحزن على وجهي وشعر برجفتي وهو يعانقني عندما استقبلته أثناء دخوله..

سألني: ماذا بكِ يا جود؟ ما الأمر؟

لم أجِبه بل بكيت!

جذبني من يدي ودخلنا غرفته وعانقني وربت على كتفي، وكرر سؤاله بحنان.. احكي حبيبتي، ماذا حدث؟ هل فعل أبوكِ شيئًا لم تخبريني به؟

هززت رأسي نافية..

هل هناك مشكلة ما في العمل؟

فانفجرت باكية.. وأخبرته كل شيء منذ البداية وإلى ما وصلت إليه!

فز واقفًا وأقسم لي أنه سيطبق السماء على الأرض ولن يهدأ باله حتى أستعيد حقي وأرضى تمامًا.. وفي الوقت ذاته سأستقيل من العمل وسيبحث لي عن عمل بجانب عمله وسأقيم معه في سكنه الصغير هناك، حتى يتسنى له الاطمئنان عليّ، ولاسيما بعدما علم موقف أبينا من مشكلتي الأخيرة.

لم يذهب لعمله في اليوم التالي وذهب إلى عملي أنا وتحدث مع المدير بهدوء أولًا حتى تأكد من أنه لن يعطيه حقي بهذه الطريقة، ثُمَّ لكمه في أنفه حتى انفجرت خيوط الدم على ملابسه، فظل يثور ويصرخ مستغيثًا بالأمن، أغلق الباب من الداخل وانقضّ عليه وأحكم قبضة يديه على عنقه حتى كاد أن يلفظ أنفاسه! ففتح الخزانة وأخذ منها بضع آلاف الجنيهات -حقي وأكثر- ثُمَّ انقضّ عليه مجددًا وكأنه يعيد المشهد من بدايته؛ لأنه قام بالتلميح لي ذات مرة بالسهرة معه في مكان خاص ورفضتُ.. ثُمَّ تركه يتحسس وجهه الدامي وانصرف. لم يعترض طريقه أحدٌ من الأمن ولا من زملائي.. فالجميع

يعرف تمامًا ما يجري وبالتأكيد سمعوا الحوار.. يبدو أنه مشهد مألوف لديهم ويحدث باستمرار مع اختلاف الأسماء! ولكن لا أحد يأتي ليأخذ حقوق البنات سوى الرجال.

هكذا يتم أخذ الحقوق يا أبي!

****

لقد تزوجَت أمي من أبي وهي في السابعة عشر من عمرها، لم ترَه سوى مرة واحدة، ثُمَّ تركت لجدي دفَّة الحوار، رغم أن أبي كان يكبرها بخمسة عشر عامًا، وكان يقطن في مدينة، بينما هي تقيم في قرية بسيطة وبعيدة عنه، ولم يكن جدي يعلم عنه أي شيء سوى شُكر الوسيط الذي بينهما؛ ورغم ذلك وافق على إتمام الزواج، هو في الأخير مُقتدر ماديًا ويستطيع انتشال ابنته من فقره وتحسين معيشتها! وفي غضون شهرين؛ كانت أمي تحمل بين يديها ورقة إثبات حَملها، وهنا بدأت الاستيعاب أنها تزوجت صغيرة جدًا ولن تستطيع حَمل حِمل زوج وطفل قادم بعد شهور! بدأت تُرسل رسائل رفض للجنين عبر خلايا رحمها المُغذية له! كانت تبكي ليلًا ونهارًا من شدة حزنها، وكأنها تفاجأت أن الفتاة بعد زواجها غالبًا ما تحْمَل! لقد ذاق ابنها الرفض قبل القبول، الكره قبل الحب، الاشمئزاز قبل الحنان؛ فأنجبت طفلًا مريضًا نفسيًا غير سويّ على الإطلاق، لديه عُقَد نقص مولود بها، وها هو يمارسها عليَّ وعليهم وعلى زوجته وأطفاله وعلى الناس أجمعين! بالتأكيد لن أرفع عنه الجرائم! لكنها كانت البادئة وهو الذي أكمل المسيرة بصدر رحب؛ فقد كان يظلم بمنتهى العدل، ويكذب بمنتهى الصدق.. ورغم ذلك لم يريا أي عيب فيه! بل كانا يبرران أفعاله المشينة وقسوته وعجرفته مع الناس، لقد عزّزا لديه هرمون (الأنا) جعلا منه شخصًا باردًا مغرورًا، لا يهتم سوى بنفسه، لا يأبه برأي أحد، لا يحترم الكبير ولا يرحم الصغير، خلقا بداخله وحشًا ليبتلع الجميع، صار يتعمد الأذى فقط ليتلذذ بآلام

الناس، مثلما تلذذ ذات يوم ببكائي ولم يشفع لي صراخي ورجائي له بتركي وشأني! لقد جعلا منه مريضًا بالمازوخية دون أن يدريا، كان يترك بصمته السوداء في كل مكان يذهب إليه؛ كان يسرق من زملائه ومن الغرباء على حد سواء؛ حتى يتسنى له الصرف على نفسه لأنه على حد قوله -عندما علمنا بالأمر ذات يوم في قسم الشرطة-؛ أن راتبه لا يكفي لشراء شيء وأبونا لا يتحمل مسؤوليته! جعل يُبرر فعلته، وكعادته يُعلق أخطاءه وكبائره على شماعات الآخرين؛ حتى ينام بضمير مستتر مرتاح!

حتى قررا مصيره بالزواج كي يعقل ويُهدَى إلى الصراط المستقيم! وكأن زوجته مركز لتأهيل الشباب أو مشفى لأمراضه النفسية التي لم تكن تعلم عنها شيئًا؛ لأنه لم يطِل فترة الخطوبة وعجّل بالزواج -غالبًا كي لا يفتضح طبعه-وبدلًا من أن تكتفي أمي به وتقوم بتربيته وإصلاح سلوكه؛ أنجبت أخي، ثُمَّ أنا، ثُمَّ أختي، ثُمَّ الذي لم أكن أعرف نوعه حينئذ! فلقد جاءنا خبر حملها الجديد!

لقد نشأ أخي حنونًا من عند الله، لقد تأثّرتُ به جدًا وسرت على نهجه، ورغم أن فرق السن بيننا لم يكن سوى عامين؛ إلا أنني كنت أشعر أنه قادر على احتوائي وحمايتي، كان سندي بمعنى الكلمة، كان كل ما توقعته من أبي وأمي ولم يحدث!

لقد نشأت علاقة أمان بيني وبين أخي..

الأهم من الحب؛ الأمان.. مساحة الأمان بين المُحبّين التي تجعل كل منهما يطمئن لوجود الآخر في حياته مهما بدر منه، مهما تعكَّر صفو أيامه؛ يعلم أنه إن لجأ إليه؛ سيجد عنده ضالته ولن يعود منه كما ذهب إليه أبدًا.. موقن أنه إن أظهر ضعفه وخيبة أمله؛ سيجد الاحتواء وتقدير مشاعره ولن يُسخَر منه، ولن يسقط من نظره مهما باح بكلام مخجل؛ يدري كل منهما أن الآخر؛ إنسان له الحق في الخطأ والسهو والنسيان، يتحمل كل منهما الآخر ويسمح له بالانفجار دون لوم.

ليس شرطًا أن تجد الأمان بعد الحب، لكن كن على يقين إن وجدت الأمان؛ وجدت الحب. وأنا وجدت فيه الأمان والحب معًا.

****

لقد أصرّت أمي وأبي أن أرتدي الحجاب في سن صغيرة جدًا، لم أكن قد بلغت الثامنة وفرضا عليَّ ما لم يفرضه ربي! وبالتالي لم أعش طفولتي كما ينبغي؛ لم أعد أرتدي فساتين قصيرة ومكشوفة الذراعين والنحر، أو البنطال ولو على كنزة طويلة! وبالتالي دُفِنَت طفولتي وحُرّيّتي في العباءات والفساتين التي تُقَبِّل وجه قدمي، وتمسح الطرق من الأتربة بذيولها الطويلة!

كنت أستغل ساعات وجودي خارج البيت وأخلع ما تم تكفيني به وأنا على قيد الحياة! كنت أتصرف بعقل فتاة مراهقة لا طفلة لازالت في الثامنة! كنت أخلع الحجاب وأمشط شعري بتسريحات جذابة -كانت معلمة الفنون تحب ممارسة فنونها في شعري الغجري الطويل- كانت الحسنة الوحيدة لأمي؛ هي نظافتي! لكنني لم أكن أريدك أن تكتفي بذلك يا أمي! كانت حاجتي لعناقك وضمي لصدرك؛ أكبر من حاجتي لغسل ثيابي! وحاجتي لتصديقي وعدم التشكيك في كل حرف أنطقه؛ أعظم من حاجتي للطعام والشراب! وحاجتي للتفهُّم؛ أرقى من علاجي من الأمراض العضوية! حاجتي كانت رعاية نفسية يا أمي وليست رعاية بدنية! كنت أود لو تريني من الداخل لا الخارج وحسب!

أعلم جيدًا أن أمي وُلدت في بيئة جافة؛ لا تسقط عليها أمطار الحنان والاهتمام، لكن أحيانًا كثيرة يكون فاقد الشيء يعطيه وبزيادة!

كانت دومًا تحكي لنا كم كان جدي يقسو عليها وأخواتها، لقد حُرم بعضهم من فرصتهم في التعليم، كانوا نادرًا ما يشترون الملابس الجديدة، كانت ملابسهم تُوَرَّثُ من الكبير للصغير حتى تُبلى تمامًا ولا تصلح حتى لأن تكون خرقة لمسح الأرضيات! ليس لشيء سوى لأنهم لا يؤمنون بمدة صلاحية الأشياء المُستهلكة، ولا بمدى أهمية زيارة الحكيم عندما يشتد على أحدهم المرض! كانوا يستيقظون فجرًا، وينامون متأخرًا من كثرة الطلبات التي يُؤمرون بتنفيذها.

لقد اعتادت أمي على الأشغال الشاقة، وبالتالي لا تفقه فن الاسترخاء، لابد أن تفعل شيئًا ما طيلة الوقت، حتى لو لم يكن هناك شيء يُفعَل؛ تخترع الأعمال وتشغل وقتها. أذكر ذات يوم دخلت عليها غرفتها؛ كانت الملابس نظيفة مرصوصة في خزانتها، ولم يكن لديها أي عمل، فمدت يديها وأخذت كل الملابس لتغسلها مجددًا وتجففها وتقوم بإعادة رصها في أماكنها! لو السماء أمطرت راحة؛ لوضعت أمي فوق رأسها مظلة! لقد ورثت الشقاء -دون وعي- من أهلها، فما ذنبنا نحن لتُورّثه لنا؟! لقد سارت معنا -تقريبا- على الدرب ذاته بحذافيره، وكلما تسنى لها الوضع لتُذيقنا ما ذاقت؛ لفَعَلت! كانت تُقارن بين معيشتها ومعيشتنا؛ فترانا مُنصَفين رغم القسوة والظلم اللذين لا ترى منهما شيئًا فيها! فتزيد مفعولهما أكثر! كنت أسمع أن هناك في زمانٍ موازٍ؛ أب يشد، وأم ترخي، والعكس.. لكنهما يشدّان معًا ولا يرخيان أبدًا؛ حتى انقطعنا نحن!

عندما كنت أستمع لحكايات زملائي عن حنان آبائهم؛ تدمع عينيّ لا إراديًا! كنت أنظر لهم بسخرية وأصمت ولا يعجبني الحديث فأغادر المجلس، وكأنه من المفترض أن يكون كل الآباء في العالم؛ قاسيين، لأشعر بالإنصاف والمساواة، أو على الأقل؛ أشعر بأن هناك من يتألم ويتأذّى نفسيًا في هذا الكون غيرنا!

وفي المقابل عندما كنت أواجههما بتصرفاتهما وأرفض بعض أفعالهما؛ كانا يقارنا أفعالهما بنماذج أشد قسوة على أبنائهم؛ ليروا أنفسهم أنبياء معصومين، وأننا نعيش في بيتهم؛ في جنة الله على أرضه! بل والعذر الذي هو أقبح من الذنب؛ نحن نفعل كذا وكذا لتُصبحوا أفضل! لن تكونوا آدميين مخلصين شرفاء صادقين وأبناء بارِّين صالحين؛ إلا عندما نفعل كذا وكذا؛ نُعاقبكم ونقسوا عليكم لتعلموا الفرق بين الحلال والحرام والصواب والخطأ، لتنضجوا، كالكعك الذي لابد أن تمسه النار لتُنضجه ويصبح رائع المذاق والرائحة!

لكننا لسنا كعكًا يا أبي، نحن بنو آدم، خلقنا الله من جسد؛ تركتما آثار ضربكما عليه كالعاهات المُستديمة التي سيُذكّرنا بها الزمان كلما خلعنا ثيابنا! ودم؛ ينزف بدلًا من الدمع أحيانًا! وقلب تُدغدغه الذكريات الأليمة والحاضر الكئيب ومستقبل مجهول يؤول بنا إلى الهاوية! ومشاعر؛ نسعى لكي نحيا أطول وقت ممكن ولا تموت في خضم هذا الصراع الدائم!

****

لم أرَ على وجه أمي سوى الكآبة، لا تتحدث إلا بِوَهَن وحزن، كثيرة البكاء؛ تبكي وهي ساجدة وتُتمتم بكلام غير مسموع، تتحدث في هاتفها مع أحد أخواتها وتبكي، أدخل غرفتها ليلًا من المفترض أن أجدها نائمة، لكنني أسمع أنينها!

كانت ملولة دائمة الشكوى، ودائمًا تُحمّلنا ذنب بُعدها عن أهلها؛ لم تكن تزورهم سوى مرة في نهاية كل عام، ولم تكن تحضر معهم أي مناسبة سواء سعيدة أم حزينة، كلما اجتمع أخواتها في بيت أبيها؛ للاحتفال بميلاد طفل جديد في العائلة، أو لقضاء عُرس أحدهم، أو لتشييع جثمان فقيد منهم، كان أبي لا يسمح بزيارتهم سوى في وقت محدد وبالتأكيد لا تُصادف موافقة مناسباتهم في نفس وقت وجودها!

كنت أسألها لماذا وافقتِ على وضعٍ كهذا من البداية؟! ألم تري المستقبل البعيد وتقرري إن كنتِ ستتحملين الوضع أم لا؛ قبل أن تتأفّفي وتعيشي حزينة طوال عمرك وتُحمّلينا ما لا نُطيق؟!

تُجيبني: لم تكن لديَّ فرصة للموافقة أو الرفض! كنا نطيع أبانا بلا نقاش ولم نكن مثلكم عديمي الأدب، نُجادل ونتبجّح!

قلت لها: نحن لا نُجادل ونتبجّح، ولكن يحق لنا إبداء رأينا في قرارات مصيرنا، على الأقل لكيلا نُحمّل أحدًا منكما نتيجة فشلنا طوال العمر! كيف تطيعين والدك طاعة عمياء في موافقتك على زوج غير مناسب بالمرة؟! عيوبه أكثر من مزاياه!

فما كان لها سوى أن تصرخ في وجهي وتلطم خدّي لأنني بالطبع تعدّيت حدودي، ولولا هذا الزواج لَما جئنا إلى هذه الدنيا! ليتكم لم تتقابلا وليتنا لم نولَد!

كانت تُقابل قسوة أبي بالسيطرة علينا والتّسلُّط والاعتراض على كل شيء بلا داعٍ! كلما رأت وجوهنا؛ لابد أن تترك تعليق على أي شيء نفعله أو لم نفعله! لماذا وضعتِ هذا هنا، لماذا جالس هكذا، افعلي كذا، لا تفعل كذا، لا ترتدي هذا الثوب ولو حتى في البيت، اذهب مشوارك بهذا القميص والبنطال! لا تطبخي الطعام هكذا، بل افعلي كذا. كانت لا تقبل بأي تجديد؛ ولاسيما في إعداد الوجبات، تريد أن أسير على نفس الدرب في كل مرة، وأنا أحب الابتكار، هي تكره الخروج عن النص وأن نحيا جميعًا وفقًا لنظرتها المحدودة في الحياة، هي تعشق الروتين وأن تعيش بالطريقة التقليدية، ونحن نعشق المجازفة في التطوير! لذلك كنا نتشاجر في كل يوم مائة مرة!

كانت تتدخل فيما يعنيها وما لا يعنيها، حتى أوشَكَت على القضاء على شخصياتنا وطباعنا الحقيقية التي صارعنا عُمرًا كي لا تُسحَق تحت حذاء تَعَنُّتها!

أمي لم يسعها في بيت أهلها أن تُكمل تعليمها؛ لصعوبة العيش ربما أو لرؤيتهم بأولوية الفلاحة ومراعاة حيوانات حظيرتهم خير من مضيعة الوقت والجهد والمال في التعليم! لذلك يتحول كل نقاش بينها وبين أبي؛ إلى جدال، فينعتها بالغبية الجاهلة ويسبّها بأفظع الألفاظ وأحيانًا تصل

المشادات الكلامية إلى الضرب! ونحن نرى ونسمع، وكلما تدخلنا أنا وأخي لفض الاشتباك؛ نُهرنا وضُربنا، فبِتنا لا نتدخل، ورغم ذلك كان عدم انسجامهما وتفاهمهما؛ يُؤذينا ويُعذبنا!

أذكر ذات يوم أنني اتصلت بخالي هاتفيًا وأخبرته دون الخوض في تفاصيل؛ بما يفعله أبي في أمي، ظل يسمعني لأكثر من ساعة، كنت مُنفعلة جدًا وأبكي بحرارة، قلت له في نهاية حديثي: أمي تُهان وتُؤذَى نفسيًا وجسديًا أمامنا ولا نستطيع منعه، لابد أن تأتي وتمنعه أو تصحبها معك!

أجابني بهدوء: لا تبالغي يا جود، في كل بيت الكثير من المشاكل، وإذا تركت كل زوجة بيتها عند كل مشكلة؛ فلن يعمر بيت في الكون!

أنهى مكالمته معي ثُمَّ قام بالاتصال بـ"ابنهما"! أخبره بحديثي كله، ثُمَّ طلب منه مُعاقَبَتي لإفشاء أسرار بيتنا! خاصةً أن أمي -صاحبة الشأن- لم تخبرهم يومًا بما قلتُه وإن كان صدقًا لأخبَرَتْهُم مثلًا! ولو قامت هي بطلب تدخُّلهم لحل مشاكلها؛ لفعلوا بالتأكيد!

لقد صنعت أمي من أبي؛ شخصًا مغرورًا أنانيًا لكثرة تضحيتها من أجله وإيثاره عليها وعلينا، لنيْل رضاه دومًا. كانت تحرمنا من الشيء لتمنحه إياه، وكان يأخذه ولا يبالي بنا! كانت تصنع لنا وجبة على الغداء، وتُميّزه بطعام آخر! كنت أسمع من زميلاتي أن آباءهم يشعرون بالغيرة منهن لإفراط أمهاتهن في الاهتمام بهن على حسابهم! ورغم ذلك كانوا يقابلون

ذلك التصرف بالمزاح، لأن فطرة الأم الطبيعية هي ميلها لأطفالها، وإن عُقدَت لها مقارنة بين زوجها وأطفالها؛ لاختارت أطفالها بلا شك! أما أمي؛ تختار زوجها في كل موقف!

عندما كبرتُ وبدأت أنتبه للمعاني الحقيقية لمواقف كثيرة؛ وجدت أمي هي رجل البيت وليس أبي! أمي تحمل هَم كل شيء؛ إذا فسدت أحد أجهزة المنزل، تُصلّحها بمالها الخاص الذي يبعثه أهلها كل بضعة شهور -منذ أن علموا بخبر تقاعده المبكر، وكبرنا وكبرت مصاريفنا معنا-! تحمل الجهاز فوق رأسها وتذهب لإصلاحه، ثُمَّ تتركه مثلًا يوم أو أكثر ثُمَّ تذهب لتجلبه دون أن ينهض زوجها من مكانه ولا يُحرّك ساكنًا! نعم.. منذ ذاك اليوم صار "زوجها" ولم يعد "أبي"! كل قسوته معنا في كَفّة، وعدم تحمّله لمسؤوليتنا في الكَفّة الأخرى!

هي التي تذهب لدفع مصروفات مدارسنا، وتُوصّلنا إليها وتعود لتأخذنا، ثُمَّ تحاول مساعدتنا في إنجاز الواجبات -على قدر تعليمها؛ فقد توقفت عند الابتدائية- لم نكن نذهب للدروس الخصوصية بالطبع لأن أسعارها باهظة جدًا، كنا نعتمد على أنفسنا في فهم الدروس من شرح المعلمين في الصف وإن لم نفهم شيئًا، وتنقص بضع درجات في نتيجة الاختبارات؛ نُعاقَب على التقصير في المذاكرة! ما عدا أختي وأخيها الأكبر؛ كانا يذهبان للدروس مع أصحابهما ولا أدري لماذا كان يُفرّق بيننا في المعاملة عامةً وفي شيء مُتعلّق بالقدرات خاصةً!

وتذهب للتسوق مرة أسبوعيًا، وتذهب لجدتي لأبي لتساعدها في أعمال المنزل، وأحيانًا تذهب لأخواته للسبب ذاته! وعندما تأتي أخيرًا ويطلب أحدنا منها شيئًا؛ كانت تصرخ في وجوهنا وتقول أننا عديمو الإحساس بها؛ فقد أرهقها العمل في كل بيت وفي السوق وفي كل شيء تفعله! كنت دومًا أنا وأخي نطلب منها ألا تذهب إليهم وأن تكتفي برعايتنا وتعبها معنا، وتوفّر مجهودها لنا لأننا في حاجة حقيقية إليها وليسوا هم! كانت ترفض بالطبع؛ لأنها اعتادت على الشقاء منذ صغرها، ولأن زوجها لن يسمح لها بالرفض أصلًا، هي في النهاية مُسيّرة بأوامره وليست مُخَيّرة! ولو كانت مُخيَّرة؛ لاختارت زيارتهم وخدمتهم بصدر رحب لأنها منذ أن جاءت إلى هنا وهي تعتبرهم أهلها الذين حُرِمَت منهم! لا أدري أكانت تُطيعه حُبًا واحترامًا له أم خوفًا من حلول غضبه عليها!

وفي ذات يوم أثناء عملها في بيت عمتي؛ تعبَت، ظلت تصرخ ثُمَّ شعرت بدوار وسقطت على الأرض، وانفجرت الدماء من تحتها! ولأول مرة أعلم كيف للجنين أن يسقط دون اكتمال نموّه!

على قدر حُزني وخوفي عليها؛ رغم ذلك كنتُ سعيدة بأن عددنا لن يزداد واحدًا!

كنت أهتم بإخوتي وكأنني الكبرى؛ تحمّلت المسؤولية مبكرًا جدًا ولاسيما أننا كنا نقضي أوقاتًا كثيرة وحدنا لعدم تفرّغ أمنا! سواء في مكوثها عند

أهل زوجها، أو للتحضير لزفاف ابنها الأكبر. فبالتأكيد لن أستطيع حَمل حِمل شخصٍ آخر!

كانت أمي في شدة مرضها؛ تقوم بتلبية طلبات زوجها، لم أرَه يُمَرِّضها أو على الأقل يرحمها ويتركها لترتاح! حينما علم بخبر إجهاضها؛ نادى أخته لتحملها ولم يُكَلِّف نفسه عناء مساعدتها! ثُمَّ تركها تطلب سيارة لتنقلها للمشفى، لقد ذهبتا وحدهما، وتركنا أنا وأخي نحمل الجنين الذي سقط ونلفّه بخرقة وأمرنا بدفنه في حفرة خارج البيت! ثُمَّ نظفنا الحجرة وأزلنا آثار دمائها من كل مكان! كان يأمر وينهي وهو جالس مكانه لا يتحرك كالصنم! حتى كوب الماء الذي يبعد عنه شبرًا؛ ينادي أحدنا ليجلبه إليه! لا أدري أهو وُلد عديم المسؤولية هكذا أم أهله وأمي هم السبب في ذلك؟! لكنني أدري جيدًا أن كلما كانت أمي شخصية مسؤولة؛ كان أبي شخصًا اتّكاليًّا واعتماديًّا. ربما لو كانت العكس؛ لكان العكس بدوره.

كان يسقط من نظري بالتدريج واحترامي له يتلاشى واشمئزازي منه يزداد.. في كل موقف يمر بنا؛ يثبت لي بكل البراهين أنه ليس "رجلًا" بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ! كنت أقارن بينه وبين رجال العائلة أو آباء زميلاتي في الصف؛ فترجح كفّتهم في كل مرة.. ويسقط في اختبار الرجولة في كل موقف!

لم أكرهه ولكنني لم أعد أحبه وأحترمه، كنت أنظر له باشمئزاز طيلة الوقت، امتنعت عن الحديث والخوض في نقاشات عقيمة معه -لا تسمن ولا تغني من جوع- لأنه في نهاية المطاف سينفجر غضبًا ويصرخ في وجهي لأكفّ عن الحديث وأقتنع برأيه بالقوة.. فما كان للكلام معنى! وبطبيعة الحال امتنعت عن النقاشات ذاتها مع أمي؛ لأنها السبب الأساسي لنقص رجولته حتى انعدمت! كم مرة عاقبتني أمي لِلَوْمِي لها على تساهلها معه لهذه الدرجة حتى استطاعت ببساطة جعله كائنًا باردًا لا يصلح للزواج ولا للأبوّة على حد سواء!

كانت استجاباتها لنصائحي؛ ضرب من ضروب المستحيل! فمن اعتاد طيلة عمره على شيء؛ استحال عليه السير في عكس اتجاهه أبدًا! كنت أعترض بثورة، ثُمَّ بصوت عالٍ، ثُمَّ بالهمس، ثُمَّ بقلبي -كنت أعلم أنه أضعف الإيمان- ، ثُمَّ سكت لساني وصمتت جوارحي ولم أعد أعترض أبدًا، كنت أنظر للخطأ بعين باردة لا تُبالي، وأرى المنكر؛ بجمودٍ تامٍ، ولم أعد أنهى عنه؛ لأنه صار مألوفًا جدًا، ولم أحرك ساكنًا، كأن القضية لا تخُصّني!

منزلنا دائمًا مليء بالضيوف؛ لأن رب البيت هو أكبر إخوته، ومن الطبيعي أن تُعقَد المناسبات كلها في بيته ليجمع شمل العائلة، فأصبح يجمعه في المناسبات وبدون مناسبات، حتى بات بيتنا الدافئ السعيد؛ كوكبًا مزدحمًا يعجُّ بالناس وصراخ الأطفال وما يخلّفونه من ألعاب متناثرة وبقايا الطعام في كل أرجاء البيت! كل غرفة تحمل الكثير الكثير من الأشخاص الجالسين

والنائمين في كل شبر فيها، ثرثرة بصوت عالٍ، وصوت التلفاز في صالة المنزل أعلى منهم أجمعين.

وأنا أعشق الخصوصية والهدوء والاستقرار والاستقلال! ما إن ينفضوا من حولنا؛ حتى يأتوا إلينا مُجددًا!! كنت أكرمهم بالضيافة أنا وأمي، من ثلاث وجبات أساسية -والدي لا يدفع سوى ثمن واحدة منهم- والفواكه والمشروبات والتسالي التي نُقدّمها إليهم في السهرة قبل أن يذهبوا جميعهم في سُبات عميق أخيرًا!! حتى تبدأ رحلتي القاسية في تنظيف المطبخ الذي لا يهدأ أبدًا!! كنت أكره الطبخ وغسل الصحون؛ لأننا بطبيعة الحال لسنا أفراد أسرة واحدة! في بيتنا دومًا طوارئ! إما أقوم بإدارة البيت وحدي وأعتني بإخوتي، وإما أنا وأمي نعتني بكل الأُسَر! ورغم ذلك كان يتّهمنا بالتقصير! نحن دائمًا ما نفعل أعمالًا غير مَرضيٍّ عنها -مهما كانت جودتها- كان يُوَبّخنا في السر ولا يأبه بتوبيخنا في العلن أيضًا أمام الجميع! كنت أرى أنه بكل الأحوال نحن مغضوب عليهم؛ فلماذا نعتني بهم ونُقدّم خدماتنا أصلًا؟!

كنت أخشى الصراخ في وجهه والاعتراض على كل شيء كما كان يفعل -رغم أن رد فعلي؛ مجرد رد طبيعي لأقواله وأفعاله!- لكنني كنت أصرخ وأبكي بصمت بداخل الحمام -إذا وجدته فارغًا بمحض المصادفة طبعًا!- وبالتدريج صارت أمي تنفث غضبه عليها فيَّ! عندما يوبّخها ويعترض على مذاق الأكل سواء كان مالحًا أو غير مناسبٍ لذائقته وأهله عمومًا؛ تقترب

مني وتنهال عليَّ بالسباب وأحيانًا بالضرب؛ حتى لو لم أكن المذنبة.. يبدو أنني دائمًا مذنبة في نظرهما! حتى أخطاء أختي؛ كنت أتحمل نتيجتها بالطبع لأنني الكبرى!

حينها كرهتها من قلبي؛ ليس لأنها ظالمة وحسب، وإنما لأنها ترضخ لظلمه أيضًا!

توقّفتُ من بعدها ألا أُناديها بـ"أمي" مثلما توقّفتُ منذ زمن ليس ببعيد عن مناداته بـ"أبي"، صِرت أحدثهما مباشرة دون ألقاب وإن اضطررت أن أتحدث عنهما؛ قلت: "هي" و "هو" وكأنني بترتهما مِنّي، وقطعت كل ما يربطني بهما انتقامًا لي! وكأنه بهذا الفعل الساذج؛ ثأرْتُ لكرامتي ولو سرًّا!

"هي" خلقت منه مريضًا مُصابًا بالـ"بارانويا"، لأنني لاحظت مرارًا أنه يعاني من سيطرة أفكار ومعتقدات لها منطق خاص من اختراعه. وأنه دائمًا سيئ الظن ويشكّ في الجميع دون سبب واضح يدعو للشك وخاصة أنه لا يُصدّقنا أبدًا ولاسيما أنا وأخي! ودائم العناد والجدل المبالغ فيه لإثبات صحة معتقداته وأفكاره، ودائمًا ما تكون ردود أفعاله مبالغًا فيها تجاه أي تصرف لا يدعو لهذه المبالغة أبدًا! دائم الاعتقاد بإمكانية خداع الآخرين له أو الترتيب للإيقاع به؛ مؤمن بنظرية المؤامرة، لذلك كان دائم الحرص، شديد التخوين على سبيل الاحتياط، ولا يُبالي أنه بذلك يقع في فخ ظلم الناس، كما أنه دائم الشعور بتقدير الذات وعظمة مبالغ فيها، يحب أن يُهتَم به في كل مجلس وأن يَفرض سُلطته وسيطرته على الجميع كبيرهم

وصغيرهم، وأن يُدير الحوار وبالتالي لا يسمح لأحدهم أن يأتي دوره بالحديث! فأجده يبدأ بالكلام وينتهي الكلام عنده أيضًا، يحب أن تكون له السيادة العظمى والتوقير المُبالغ فيه الذي يؤدي إلى تقليل شأن أحدهم لممارسة غروره بسلاسة ولا يجد أي بأس في هذا، ورغم ذلك يصف نفسه بالتواضع طبعًا! يحب أن يجلس على رأس الطاولة ويأخذ النصيب الأكبر في الطعام مثلًا، ويُقدَّم له أفضل الشراب وأفضل شيء من كل شيء، دون أن يراعي الآخرين! أهم شيء لديه؛ أن الجميع قام بخدمته على أكمل وجه.

من شدة حرصه وتخوينه؛ كان مُصابًا بالخوف الشديد من إعطاء الناس أي معلومات عنه، حتى الأشخاص المقربين؛ خشية استخدامها في إيذائه مثلًا!! حتى جعلني أنظر لكل الناس بنفس العين وأُسيء الظن في الجميع على سبيل الاحتياط، حتى لو تبيّن لي منهم عكس ذلك؛ أستمر في الحرص منهم هكذا ودون سبب مُقنع! كنت أكره أن أعيش على وضع الاستعداد طيلة الوقت وألا أثق بأحدهم مهما كان صادقًا في طيبته! كان وضعًا قاسيًا في حق ذاتي قبل أن يكون قاسيًا في حقهم عليَّ!! لكن فاقد الشيء -أحيانًا- لا يُعطيه مع الأسف! إذًا هل انتقلت البارانويا منه إليَّ؟؟!! لكنني لست مغرورة وأنانية مثله، فقط أصبحت شديدة الحرص والتخوين! لكنني اكتشفت فيما بعد أنني حقًا أُصبتُ بنوع من البارانويا لأنني من شدة الأذى النفسي والجسدي اللذين كانا يقعا عليَّ؛ كنت أتوهّم بأنني أعاني من الألم! كنت أشعر بالآلام في منطقة معينة أو في مناطق متفرقة من جسمي، وبالرغم

من أن الكشف والتحاليل ورأي جميع الأطباء الذين قمت بزياراتهم -سرًا-؛ أظهروا أنني سليمة تمامًا، رغم ذلك ازدادت حالتي سوءًا يومًا بعد يوم واستسلمت لتلك الحالة لفترة طويلة ولازمتُ فراشي، كنت أفكر مليًا في كل شيء حدث لي منذ ولادتي وحتى ذلك اليوم؛ حتى أُصبتُ بعقدة الذنب الدائمة؛ حيث كنت أعتقد أن كلَّ ما حدث من كوارث؛ كانت بسببي بشكل أو بآخر. وأنني المسؤولة الوحيدة عن نتائجها، وبالتالي كان "هو" و "هي" معهما كل الحق؛ لأنني فعلًا أستحق العقاب، بتُّ أجلد ذاتي دون رحمة، حتى أنني ولأول مرة؛ فكرت في التخلص من حياتي وأنه لابد أن أقوم بقتل نفسي بأي شيء حاد أو رمي جسدي من الشرفة أو الانتحار بأي مادة سامة كما كنت أشاهد في التلفاز! لكن لم تكن لديَّ الجرأة على فعل شيء كهذا، لكن الفكرة نالت إعجابي جدًا، لذلك خبَّأتها في مكان قصيّ في عقلي وبالطبع لم أخبر بها أحدًا كالعادة، لكنها كانت تراودني من حين لآخر!

****

كانت "هي" لا تؤمن أبدًا بانتهاء مدة صلاحية الأشياء! فكان كل شيء في البيت يَبْلَى وينكسر ويُقطّع أشلاء ولا يُصلح أبدًا للاستخدام الآدمي؛ ورغم ذلك ترفض رفضًا قاطعًا للتخلص منه! رغم أنها لا تستخدمه أبدًا. اكتشفت بعد ذلك أنها مُصابة بمرض "الاكتناز القهري" وقد لاحظت أنها ورَّثَتْ لأختي هذا المرض اللعين! طوال الوقت تقومان باقتناء الأشياء الزائدة عن الحاجة بشكلٍ غير مبرر، وتجدان صعوبة بالغة في التخلي عن تلك الأغراض حتى وإن كانت عديمة القيمة والفائدة، ورغم ذلك لديهما شعور دائم بالحاجة الملحة نحو الاحتفاظ وعدم التفريط بها، بالإضافة إلى الانزعاج الكبير من فكرة التخلص منها -مما أدى إلى نشوب خلافات بيني وبينهما طيلة الوقت-؛ لأن تراكم تلك الأغراض شكَّلَ فوضى بشكلٍ مقزز مما جعل من المستحيل أن يصبح ذلك المنزل صالحًا للمعيشة!

طلبت "منهما" أكثر من مرة استبدال بعض الأثاث على سبيل التطوير في شكل المنزل ومدى تأثيره على نفسيتنا؛ فانفجرا غاضبين في وجهي! قال: بينما نحن ننحت في الصخر كي نوفر لكم الأساسيات كالطعام؛ أنتِ تتمنّين لبس ثوب ليس على مقاسنا أبدًا، تُفكرين في توافه الأمور التي ليست حتى من الكماليات، نحن نود لو نحيا مستورين برضا الله، بينما أنتِ تعقدين المئات من المقارنات بين حالنا وأحوال الناس. بينما نحن نبحث عن راحة البال؛ أنتِ وأخيكِ في الجهة الأخرى ساخطان طوال الوقت! ماذا نفعل أكثر

لننال رضاكما السامي يا ترى؟! أنتما عديما الإحساس، أنانيّان لا تنظران سوى تحت أقدامكما، بينما نحن ننظر إلى المستقبل البعيد!

بصراحة حتى هذه اللحظة أنا لا أدري تحديدًا في أي صخر تنحتان لنعيش؟! هل جمال البيت وتوفير أرائك وأسِرَّة مُريحة، والتخلص من الكراكيب التي شوَّهت منظر الكون؛ من التوافه؟! عن أي راحة بال تسعيان ومنزلنا لم يتسع لوجود أصحابه من كثرة الوافدين عليه!! عن أي ستر تتحدثان ونحن لم نبتَع ثوبًا جديدًا منذ أكثر من ثلاثة أعوام؟! ألم يحق لنا على الأقل شراء كسوة جديدة في بداية كل صيف وشتاء؟! ماذا عن أحذيتنا البالية منذ زمن وكم تعِبَت من تقبيلها للأرض وبواطنها ممزقة؟ كم مرة ذهبنا لإصلاحها حتى باتت غير صالحة للإصلاح! كم مرة وقعنا في شباك التنمر من قِبل زملائنا في الصف بسبب هيئتنا غير المُهندمة أغلب الوقت! كم مرة جُرحنا وأُحرجنا على أسباب لم نكن يومًا السبب فيها؟! ورغم ذلك كنا نبذل أقصى جهدنا للحفاظ على ملابسنا نظيفة أطول وقت ممكن لئلا نُعَاقَب -لأننا قمنا باتساخها ككل الطلبة، ورغم ذلك لسنا كباقي الطلاب؛ لأن الملابس الممزقة عندما يتكرر غسلها؛ يزداد عدد الرقعات بها، مما يدفعهم لشراء ثياب دراسة جديدة في مطلع كل عام دراسي -على الأقل-! وهذا في مذهبنا؛ مستحيل بالطبع، فكنا نحافظ عليها من أجلنا وليس من أجلهما- وفي المقابل كان ابنهما الكبير يظهر دومًا في أبهى صورة ومن ثُمَّ يورّثان ملابسه وأحذيته وممتلكاته القديمة وفضلاته لأخواته

الصغار! دونما مراعاة لتغيير الموضة أو اختلاف ذائقتنا في اختيار هيئتنا، أو أنه ببساطة ما يناسب الولد؛ لا يناسب البنت! لكن هيهات!

حاولت ذات مرة تمزيق حقيبتي الدراسية -الممزقة أصلًا- وتوسيع حجم الرقعات بها كي تظهر في أقبح صورة، وأن يستحيل أن تحمل كُتبي وأدواتي مجددًا؛ ومن ثَمَّ يشفق عليها أحدهما ويقوم بتبديلها ويُخلّصني منها للأبد -فلقد التصقت بي طيلة السنوات الثلاث وآن لها أن تذهب للجحيم أخيرًا!- لكنني عُوقبت على هذا الجُرم الذي فعلته بحقها ثُمَّ حقهم! لا أدري ما علاقتهم بالموضوع! فأنا التي أرتديها ممزقة في حين أن كل أصحابي يستبدلون ملابسهم وحقائبهم في مطلع كل عام! قررت أن أُؤجل اشتراك السباحة للسنة الرابعة -رغم أنني كنت مولعة وشغوفة جدًا بانضمامي لهذا الفريق بالذات في مركز الشباب المُلحق بالمدرسة- لأنني أنظر بعين الأولويات؛ فساعدني أخي وابتعت ملابس وحقيبة جديدة. كما قررت أيضًا عدم جلب الساندوتشات التي كانت تصنعها أمي في صباح كل يوم؛ لأنها كانت تصنعها بخُبز الأفران المحلية، بينما زملائي يجلبون الشطائر الجاهزة من الأفران المُتَمَدِّنَة أو من مقصف المدرسة، كنت أعقد المقارنات رغمًا عني كي لا أظهر دون المستوى ويُعاد تجريحي وإحراجي وأدفع فاتورة كسل أبي عن العمل! بكل الأحوال كنت أتناول فطوري قبل خروجي وأتعمد الصيام عن الطعام أطول وقت ممكن وأتحمل الجوع حتى أذهب إلى البيت وأتولى أمري، كما كنت أراعي حفاظي على وزني ثابتًا قدر المستطاع، كي لا

أضطر لشراء ملابس مدرسية جديدة بمقاس أكبر وإلا تركوني أهلي أرتدي ثوبًا ضيقًا وقصيرًا وأصبح كالمهرجين! كنت أصارع طيلة الوقت لأحافظ على كياني الخاص الذي حاربت لأصنعه على مدار تلك السنوات! في ظل اهتمام صديقاتي بشراء الألعاب التي تناسب سن المراهقة، ومتابعة أخبار الفنانين، ولصق صورهم على أدواتهم المدرسية وجدران غرفهم؛ كنت أنا أسابق الزمن لأبدو طالبة مجتهدة دون مساعدة أحد، نظيفة، ذكية، بليغة، مثقفة، محبوبة، والأهم من ذلك أن أحصل على القبول الذي لم أحصل عليه داخل البيت! كنت أدور في مدار لا أحد يعلم عنه شيئًا إلا الله، حتى أخي بت لا أُحمّله أكثر من طاقته؛ فهو يدور بمداره هو الآخر ولا يُخبر أحدًا! ولا أحد مُهتم أصلًا بالأخبار.

شعور الرفض؛ أقسى ما يمكن للإنسان أن يشعر به! ألّا تُحَب وتُقبَل سوى بتحقيق شروط مُعينة! إن فعلتَ كذا؛ فأنت مقبول بيننا، تكن صديقنا وحبيبنا، وإن لم تفعل؛ فأنت مرفوض، تكن عدوّنا وبغيضنا! تشعر أنك منبوذ، مُهَمّش على أطراف العلاقات، لا يحق لك مشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، لا يُؤخَذ برأيك ولا تُشكِّل أي فارق لهم.. حضورك وغيابك سواء! حينئذ تُفرَض عليك العُزلة الإجبارية، وتنأى بنفسك عن الجميع، تبني لذاتك كيانك الخاص الذي تشعر فيه بالأمان والاستقرار، والاستقلال الذي تستحقه، لكن سرعان ما تذوب روحك في غياهب الوحدة. فأنت في نهاية المطاف لم تُخلَق لتعيش وحدك! والذي يزيد الأمر سوءًا؛ أنك تحبهم

وتقبلهم كما هم، وبدون شروط! لكنهم استخفّوا واستهانوا بك واستكبروا واستكثروا أنفسهم عليك! فتجد نفسك محصورًا بين خيارين لا ثالث لهما؛ أن تختارهم وتخسر كرامتك للأبد، أو أن تنعزل عنهم لتكسب ثقتك بنفسك. في النهاية لابد أن تقبل وعيك وإدراكك بأن ذاتك؛ هي الباقية معك للنهاية، ويجب عليك تقديرها واحترامها وتَقبُّلها في كل حالاتها، ولا تنتظر القبول من أحدهم شفقة وإحسانًا.

فكرت جديًا في ترك البيت والعيش بعيدًا، لكن أين سأذهب؟ وكيف سأُدبّر شؤوني المادية؟ حتى وإن قمت بالتصرف من مصروفي الذي ادخرته أنا وأخي للظروف الصعبة -إذا افترضت أن مائتي جنيهٍ تفي بالغرض- كيف يوافق صاحب شقة بالإيجار أن يسمح لفتاة في الخامسة عشر من عمرها بالجلوس بمفردها؟ كيف ينظر لها الجيران؟ كيف أستغني عنهم أجمعين في لمح البصر! وهل سيتقبل أخي هذه الفكرة المجنونة؟! نفضتُ رأسي من هذه الفكرة الساذجة، لكنها نالت إعجابي أيضًا وخبئتها مع أختها.

****

"هو" كان جُبنه واضحًا في كل المواقف؛ مثلًا عندما تفسد أحد مفاتيح الكهرباء ويضطر لجلب كهربائيّ ليقوم بإصلاحه، يخشى تجربته وينادي على أحدنا ليقوم بتجربته بدلًا منه! كنت في البداية أحسن الظن وأقول في نفسي ربما يُصدّرنا لمثل هذه المواقف على سبيل المداعبة، لكنني اكتشفت، ثُمَّ أيقّنتُ أنه يحمي نفسه بأي شكل ولو عرّضنا للخطر فلا بأس!

فكيف سأشعر في كنفه بالأمان والحماية اللذين من المفترض أن أشعر بهما بجانب "أبي"؟!

ظللت أمارس حياتي بشكل طبيعي وكأن صراعًا لم يكن!

فكرت أن أبتاع حيوانًا أليفًا يُساعدني على حب البيت -طالما بكل الأحوال مضطرة إلى المكوث فيه وهو على حالته تلك، لكن بالتأكيد قوبِلَت فكرتي بالرفض! فهم لا يستطيعون تلبية طلبات الإنسان؛ سيُلبُّون حاجات الحيوان؟! عندئذ جلدت ذاتي كثيرًا جدًا، كان يجب عليَّ توقّع رد فعلهم دونما مجازفة بتجربة فاشلة! لكنني كنت مُتحمسة جدًا للفكرة! لكن لا بأس.

خبئتها بجانب أُختيها، إلى أن انتهيت من دراسة الثانوية، كنت سعيدة جدًا باجتياز هذه المرحلة بتفوق مُبهر هكذا ودون مساعدة أحدهم سوى ببعض النقاط الصعبة التي كانت تقف عائق أمامي وكنت ألجأ للمُعلمين في الحصص الفارغة أو في أوقات الراحة؛ وكانوا يُقدمون لي كل الدعم دون مقابل، فقط لأنهم يحبونني ومُدركين كم كنت أعاني -منذ دخولي لتلك المدرسة- لتحقيق ذاتي بدون الحاجة لدروس خصوصية كما يريد أهلي!

وكانت الطامة كبرى؛ عندما رفضوا التحاقي بالجامعة! -رغم أنني أقوم بالاستعداد والادخار لها منذ شهور- فالتكاليف التي قاموا بصرفها عليَّ في مرحلة الثانوية؛ كانت كافية ووافية! وحتى الآن لا أدري تمامًا عن أي تكاليف يتحدثون! ظللت أبكي وأنتحب دون جدوى، حاول أخي التدخل بمساعدة مادية أكبر؛ لكنني رفضت رفضًا قاطعًا، فما كان يُقدمه لي كثيرًا عن فضله ولُطفه ولم يكن فرضًا عليه! حرقني شعور قلة الحيلة والعجز، كرهت الفقر وكرهتهم جميعًا باستثناء أخي، كُسِرت فرحتي بنجاحي، كان اليوم الذي كنت أنتظره بفارغ صبري لأحتفل بالتحدي الذي خُضته ضد الجميع، واليوم صار أسوأ يوم على الإطلاق! تمنّيت أن تنشق الأرض وتبلعني حقًا! إذا كنت لن ألتحق بالجامعة؛ فلماذا التحقت بالثانوية العامة منذ البداية وسُحِقت في المذاكرة؟!

وسرعان ما قمت بالاتصال بعمي وخالي كي يقنعوهم بضرورة التحاقي بالجامعة لإكمال مسيرتي، فما كان من عمي سوى توبيخي لأنني من المفترض أنني كبرت ونضجت وفهمت أنهم غير قادرين على مصاريف مرحلة جديدة كهذه ومن الطبيعي أن أُقابَل بالرفض عندما أطلب المستحيل، وإلا فالتحاقي بعمل وتوفير طلباتي؛ سوف يُغيّر دفّة شراع تلك السفينة التائهة بلمح البصر وسأصل بالطبع إلى وجهتي -حتى لو قابلتني بعض العقبات؛ وجب عليَّ اجتيازها بأي طريقة كي أحصل على مرادي-! وما كان من خالي سوى أنه قام بالاتصال بأخته ليُبلغها أنه قد أرسل لها مبلغًا

من المال -قدر إمكانياته- ليساعد في حل المشكلة، ثُمَّ بعد أيام؛ قام الخبر بالانتشار في العائلة الكريمة وساهم كل فرد بما تسنّى له! كان "هو" سعيد جدًا أن الجميع قدم المساعدة وقام أخيرًا بـ"رد جمايله!"

لم أذكر منذ نعومة أظافري أننا قدمنا جميلًا لأحدهم! حتى عندما كانوا يقومون بزياراتنا أو بالأحرى "الإقامة عندنا" كانوا يُساهمون في تلبية طلبات البيت وشراء بعض ما يلزم من الخزين الغذائي وتغيير أنابيب الغاز ودفع أحد الفواتير أحيانًا! وهكذا.

كنت مندهشة لردة فعلهما! كيف تشعرون بالرضا والسلام الداخلي لهذا الحد؛ بينما أنا وأخي نتعانق ونبكي عندما فقدنا ماء وجهنا واستحيْنا من أنفسنا ومن أهلنا ومنهم أجمعين! وبتنا نتحاشى النظر في وجوههم ونرفض أن نجتمع في أي مناسبة تجمعنا! ولاسيما عندما انهالت عليَّ اتصالات المَنّ والأذى من قِبل أبنائهم وزوجاتهم! "هيا يا فيلسوفة عصرك، ساعدناكِ بكل ما نملك، فقط نرجو ألا تُخيِّبي رجاءنا وثقتنا بكِ!" ، "آه لو تعلمين كم كنا بحاجة لذلك المبلغ؛ لكنه ليس خسارة فيكِ أبدًا، أنتِ متفوقة وتستحقين الدعم المادي والمعنوي أيضًا!"

وأحاديث من هذا القبيل...!!! أحاديث من التي تجرح الفؤاد بآلة حادة وتقتل الروح ألف ألف مرة دون رحمة! وبالتأكيد وجب عليَّ في نهاية كل مكالمة؛ أن أشيد بعرفاني وشكري بخضوع! وأن أقطع كل الوعود إليهم أنني

سأفعل كل ما بوسعي كي أثبت لهم أن رهانهم لن يخسر، وأن استثمار أموالهم في طالبة نابغة مثلي؛ ما هو إلا استثمار رابح لا محالة!

بعدما كنت أحارب لأجلي وأجل أسرتي طيلة الأعوام الماضية؛ إذ وجبت عليَّ الآن شن الحروب والصراعات لأجل سكان الكرة الأرضية كلها!!

رغم أن رأي عمي كان قاسيًا جدًا؛ لكن بعض القسوة مُحقّة جدًا جدًا. أخذت برأيه وناقشت أخي ودون استشارة أحدهم؛ ذهبت لمحل الحيوانات الذي كنت أمر عليه ذهابًا وإيابًا على مدار السنوات الثلاث الأخيرة؛ وبما أنني صرت مألوفة جدًا وكل العاملين فيه صاروا أصدقائي؛ تم قبولي واحدة ضمن فريقهم، بعدما نسّقت مع الإدارة مواعيد العمل التي تناسب مواعيد محاضراتي، بذلك ضربت كل العصافير بنفس الحجر؛ كسبت المال وغطّيت تكاليف طلباتي -وحدي- نعم منذ ذلك اليوم قررت ألا أشارك في مصاريف أختي المدللة، تركتها لهما كي يبصرون كم كنا نضغط على ذواتنا المُهلَكة كي لا نُشعرهما باحتياجاتنا! في البداية رفض أخي أن يتماشى معي وظل يمنحها مصروفها الشهري من راتبه، حتى امتنع بطبيعة الحال؛ لشدة حاجته للمال، فكُلية الهندسة تبتلع كل ما في جيبه، وهكذا ظل كل منا يتكفّل باحتياجاته وحده، وصِرت أقضي معظم وقتي خارج البيت -سواء في الدراسة أم الإجازة؛ كما كنت أُضاعف وقت عملي في الإجازة لحُبي للمكان، ولكي أقبض راتبًا إضافيًا يكفيني دون اللجوء إلى أحدهما!-

ولأنني في الأصل أعشق الحيوانات، وجدتها فرصة عمل ربانية أهدانيها الله لي.. كان ومازال لطيفًا بي.

كم أعشق عالم الطير والحيوان، عالم دافئ بريء تملؤه الرحمة والسلام، رغم أن الله لم يخلق لهم عقلًا يدركون به ماهية الأشياء؛ إلا أنهم تفوّقوا على بعض البشر في الحنان والذكاء! أحب أن أحنو عليهم، أن أمنحهم كل ما أتمناه في هذه الحياة القاسية؛ فقط الأمان والحب الحقيقي دون زيف أو أي شعور بالذنب. ظللت أجلس معهم بالساعات أنظر إلى أعينهم مباشرةً أتأملهم دون أي شعور بالملل، أحببت فكرة الاتفاق المفاجئ للاطمئنان الدائم! ما إن ترددت على المكان وجلست حولهم إلا وخلقتُ هالة من الأمان أُحيطت بنا، حتى بدأت أقترب شيئًا فشيئًا وأُلقي لهم بالطعام، حتى اقتربت جدًا وخطواتي تملؤها الثقة بأنهم لن يهربوا فزعًا مني! ولَكَم طولبت بتربية حيوانات وطيور تُؤكل أو يُنْتَفَع من خيراتها؛ إلا أنني أحبهم بصدق دون انتظار أي مقابل لهذا الحب، ولاسيما عندما يكون المقابل زائلًا -مجرد شربة حليب أو بيضة وشريحة لحم أُصالح بهم معدتي قبل أن تقوم بهضمهم وكأن خير لم يكن!- .. فإن العاطفة الجياشة التي تغمرني وأنا معهم؛ لم ولن تزول مادام قلبي ينبض لأعيش سيظل ينبض بالحب الذي ساهموا في إظهاره على ملامحي ونقشوه في روحي. كنت في الصغر أعتقد أن الناس تقوم بتربية الحيوانات، لكن اكتشفت أن الحيوانات هي التي تُربّينا وتُحرِّك

الحب الساكن فينا، وهناك فرق عظيم بين التربية والرعاية. رأيت الكثير الكثير من الرُّعاة، لكنني لم أرَ سوى القليل القليل من المُربّين!.

وهربت من عالم البشر الممل القاسي؛ إلى عالم الحيوان الهادئ الحنون، علَّني أجد ضالتي.. وبالفعل وجدتها!.

****

كنت أظن أن فكرة عملي مُستحسَنة لديهم، فإنني وفّرت عليهم الوجبة الوحيدة التي كنت أتناولها في البيت وأصبحت أتناول ما استطعت شراءه من المطاعم بجانب عملي، وصِرت أقضي كامل وقتي بعيدًا عنهم مما قلل حجم الخلافات بيننا. لكن زارهم ابنهم الأكبر وعندما سأل عني وعلم عن عملي لالتحاقي بالجامعة؛ رفض الفكرة تمامًا وقام بتوبيخهم لسماحهم بذلك، ماذا يقول الناس عندما يعلمون عن خروج ابنتكم من البيت فجرًا لذهابها لجامعتها، ثُمَّ عملها منذ الساعة الرابعة عصرًا وحتى الثانية عشر صباحًا! وفي أيام عطلات جامعتها؛ تعمل من السادسة صباحًا! كيف تسمحون لها قضاء معظم يومها على الطرقات كالمنحرفات اللاتي ليس لهنّ أهل يُربينهنّ!

صاحت "هي": نعم يا بني معك كل الحق! حتى أنا تعبت من أعمال المنزل وحدي وأنا لم أعد شابة، لابد أن تطرد فكرة جامعتها وعملها من رأسها تمامًا وتعيش معيشة أهلها وترضى بحالنا شاءت أم أبت!

وصرخ "هو": نعم معكما الحق! حتى إنها لا تُساهم في مصاريف البيت من رواتبها، تتخذ البيت كغرفة في فندق للنوم وحسب! ولا ندري عنها شيئًا؛ مَن تُقابل؟ مع مَن تتحدث طيلة اليوم؟ مع مَن تذهب ومع مَن تعود؟! بتنا كالغرباء لا يحق لنا السؤال عن أي شيء يخُصّها! لقد تكَبَّرت بأموالها كما ترى، وأصبحنا لا نملك أي سيطرة عليها!.

فأجابهما: لأنها اعتادت على الأنانية من صغرها، وحتمًا سيتبدّل الوضع ولابد أن تترك هذه الفوضى وتُدْفَن هنا في البيت تحت أرجلكما لخدمتكما، أنتما لم تعودا شبابًا!.

فأمّن على كلامه، وطلب منه دفع إيجار البيت لآخر شهرين لأن المعاش لم يكفي سوى لسداد الفواتير وأصحاب البيت لا يرحمون ولن يصبروا علينا أكثر من ذلك.

فانفجر في وجهه غاضبًا: يا أبي مالك تُحادثني وكأنني أدير البنك؟! أنا مجرد موظف فيه وراتبي بالكاد يغطي طلبات منزلي وزوجتي وأبنائي. فصفق الباب ورحل.

وعندما عدتُ؛ انهالت عليَّ نتائج المحاضرة العظيمة التي ألقاها ابنهما المُبَجَّل، ورفضت رفضًا قاطعًا ترك عملي ودراستي لأي سبب، وعندما وافقت على مساهمتي بجزء من راتبي في مصاريف البيت، ودفع الإيجار المتأخر وإلا طُردنا منه؛ تركوني وشأني!.

شعرت بالقهر أكثر، لأنه من المفترض أنه أخي الكبير بمثابة أبي، وعمله مرموق جدًا لا يقل راتبه عن ثمانية ألف جنيهٍ شهريًا، بدلًا من مساعدتي ومساندتي كي لا يجرحني الغريب والقريب؛ فإنه لا يفعل شيئًا سوى المجيء وقلب الطاولة فوق رأسي بعد كل زيارة له! فلتقل خيرًا أو لتخرس!!

حينها خطرت على بالي فكرة الالتحاق للإقامة بمدينة الطلاب الجامعية، لكنها لم تنجح وفقًا للقوانين وهي أنني طالبة منتظمة والجامعة تبعد بضع

كيلو مترات من بيتي. حاولت بكل الطرق أن يستثنوني؛ لكنهم رفضوا بالطبع!

في وسع العائلة أن تكون جسرًا منيرًا رغم عتمة الحياة؛ تمر عليه فوق الفشل واليأس والحزن لتصل إلى مبتغاك، محققًا أهدافك، فتحيا سعيدًا مطمئنًا، فتعيش على قيد الأمل. أو تكون حصنًا منيعًا حاجزًا بينك وبين مُستقبلك؛ تتسلق عليه بصعوبة لترى أحلامك من بعيد وقد تلاشت ملامحها وانهدم بُنيانها من قبل أن يكتمل؛ فتموت حزينًا مضطربًا وأنت على قيد الألم لا الحياة!

****

لقد قمت أخيرًا بشراء هاتف نقّال -بعد معاناة من الادخار وحرمان نفسي من معظم أولوياتي شهورًا وبدون الاستعانة بأخي-ابتعته من الطراز الحديث كي أستخدمه في أبحاثي ومشاريعي التي تُطْلَب مني. عندما رآه في يدي بعد منتصف الليل وأنا أقوم بالبحث عن بعض النقاط التي تقف أمامي على أحد محركات البحث؛ "قال" لي بنبرة حادة: من أين لك هذا؟!

قلت: من عملي -فهو منذ التحاقي بالعمل أنا وأخي منع عنا بضع الجنيهات التي كنا نأخذها كل أسبوع!-

قال: ولماذا تشترين شيئًا قيمًا كهذا دون إخباري أنا وأمك؟! هل وصل بك الغرور والاستغناء عنا لهذا الحد؟؟

أجبته باستنكار: أي غرور واستغناء؟! طيلة عمري أقوم بالادخار وأشتري أهم ما أحتاج! بغض النظر عن أنه بطبيعة الحال كيف لطالبة جامعية تسير هكذا دون هاتف؟ ولاسيما إن كان سيساعدها في دراستها ويُسهّل عليها التواصل مع الزملاء والمعيدين؟! وإن أخبرتكما بأنني أحتاج هاتفًا؛ ماذا أنتما فاعلان؟!

فلطم خدي وجعل يصرخ في وجهي: أنتِ ومالك لأبيكِ يا فاجرة! أصبحتِ مثل البقرة كيف لي أن أضع يدي في جيبي وأعطيكِ؟ لقد كبرتِ وصِرتِ مسؤولة، لستِ رضيعة لنساعدك ونفعل شيئًا، ماذا كنتِ تنتظرين منا فعله يا ترى!!

فاتخذت الصمت ملجًا وملاذًا وذهبت إلى الحمام كعادتي أفرغ كل ما في عيني من دموع مقهورة!

وبعد أيام من هذا الموقف، في السادسة فجرًا تحديدًا..

قام أحد زملائي بالاتصال بي ليُخبرني أن موعد المحاضرة قد تم تغييره، أصبحت الساعة السابعة والنصف بدلًا من التاسعة. فشكرته وأغلقت الخط، وإذ بها تفتح باب غرفتي دونما استئذان كعادتها، فوجدتني أقوم بتجهيز ملابسي وحقيبتي، فسألتني بصياح: ماذا تفعلين؟ ومع من كنتِ تتحدثين الآن؟!

فأجبتها بما حدث.. فعَلا صياحها اعتراضًا على زميلي الشاب الذي يملك رقم هاتفي ويحادثني في وقت متأخر هكذا.. حاولت أن أشرح لها أننا بعد الفجر يعني بداية صباح يوم جديد، وأن علاقتنا محدودة جدًا وفي نطاق الدراسة فقط وأنني أستطيع فرض الحدود في علاقتي مع الشباب والرجال عمومًا خارج البيت، وأن الدكتور أو العميد يقوم بإرسال رسالة على المجموعة التي تضمنا على التلجرام أو الواتساب ليُخبرنا بأي تغيير قد يطرأ على مواعيد المحاضرات، أو أنه يقوم بإبلاغ طالب أو طالبة وهما يقومان بإبلاغ البقية؛ إلا أنه من المستحيل أن تتفهّم كلامي وتثق بي كعادتها!

قالت لي: ولماذا لم تخبرك زميلة بما أخبرك به هذا الشاب أم أنه يحب مساعدة البنات الجميلات مثلك فقط؟ والشباب تقوم بالاتصال بهم فتاة؟ والحياة عندكم في عالمكم المنفتح المنحل يسيرة، وكل ما تريدونه تفعلونه

بلا أي رادعٍ ولا مراعاة لأي مبادئ يا عديمة الأخلاق والدين! وقامت بصفعي مما أدى إلى نشوب حريقة جديدة في هذا الصباح الحزين.. فاستيقظ هو على الفور! وسأل عن سبب خلافنا، وأجابته بالطبع! مما جعله يأخذ هاتفي مني ويمنعني من النزول؛ لأنه لا يدري أين كنت سأذهب؟ إلى الجامعة فعلًا أم إلى عشيقي الذي قام بالاتصال بي وهما نائمان جاهلان بما يدور خلف ظهورهما!!! بكيت كثيرًا ولم أتفوّه بكلمة واحدة؛ لأن الكلام مع هذه النوعية من العقول لا يسمن ولا يغني من جوع، أي أن الحال سيبقى كما هو عليه لن يتغير قدر أُنملة! وسرعان ما أزال خطي من الهاتف وذهب لأحد المحلات ليقص خطه ويضعه في هاتفي الذي ذُقت المر والحرمان لأبتاعه! كانت هذه هي المشكلة منذ أن رآه في يدي؛ أنني استطعت شراء ما لم يستطِع هو! لكن ما ذنبي أنا؟! ذنبي أنني يسَّرتُ عليه تلك الخطوة كي يجد الحجة أخيرًا التي يسلب بها هاتفي مني دون شعوره بالذنب!

كنت أستمع لحكايات أحد صديقاتي عن أبيها؛ كم كان ولازال يعشقها وأختيها، حتى لو لم يستطع أن يلبي لهن حاجاتهن؛ كان يبذل أقصى جهده ليوفرها فقط ليرى البسمة على وجوههن. كانت تقول: أبي يعاملني كملكة وهو أميري، يُدللني ويغني لي ويرقص معي كل ما تسنى له ذلك، وأحيانًا يستيقظ قبل موعد ذهابي للجامعة ويوقظني بقُبلة وعناق ويُحضر لي الفطار في فراشي ويُغنجني، ويقول لي: فطارك جاهز يا هانم، حتى ننفجر

ضاحكين. أبي يفتح محفظتي كل بضعة أيام ليتأكد من أنها لم تخلُ بعد من النقود ويقوم بتزويدها أولًا بأولٍ كي لا أضطر للطلب منه، لأنه يقول لي دائمًا: لا تسمحي لذاتك العزيزة أن تطلب شيئًا من أحد بحياء حتى لو منّي أنا! ويفعل الشيء ذاته مع باقي إخوتي. وعندما يرى غيرة أمي على سبيل المزاح؛ يجذبها من يدها وينحني؛ تسمحي لي بهذه الرقصة يا هانم؟ ويرقصان بدون موسيقى أحيانًا مما يضفي جوًّا مرحًا على البيت، فيقوم بتقبيلها وعناقها أمامنا مما يجبرنا على الجري ضاحكين حياءً والاختباء في غرفة أخرى لترك لهما مساحة حب -كما كان يُسميها- لقد تربّينا على الأحضان والتقبيل بداعٍ وبدون داعٍ أيضًا، نتشارك في كل شيء ونستشير بعضنا البعض. أبي يقدم لأمي المعونة ويطبخ لها ومعها أحيانًا ويغسل لها الصحون ويظلان يحكيان بالساعات في كل شيء حتى لو هما على معرفة مسبقة بالمواضيع ذاتها ورغم ذلك لا يملّان أبدًا! أنا أراعي أختي الصغرى وأختي الصغيرة تراعيني، بيتنا يُعَد رمزًا للسلام والرحمة؛ لذلك أنا أعشق البيت وأعشقهما وأعشق إخوتي ولا أتخيل حياتي بدونهم لأنها بالتأكيد ستبيت خرابًا لا قدر الله لنا ذلك!

أما أنا فلقد علمت أن البيت بالنسبة لي هو مجرد ابتلاء وعليَّ أن أصبر عليه لئلا ينتقص من إيماني جزءًا! فأنا أكره البيت كُرهًا بالفطرة؛ وُلدت به! أرى كل أصدقائي سواء في الدراسة أو العمل ينتظرون نهاية اليوم بفارغ الصبر كي يهرعون إلى بيوتهم ينعمون براحةٍ ونومٍ هنيءٍ، أو يلتفون مع

أهلهم حول مائدة الطعام ويظلون يأكلون ويتبادلون أطراف الحديث، وينتظرون عُطلة نهاية الأسبوع ليقضوا معًا وقتًا طويلًا ممتعًا. أما أنا فلا! ومن المحال أن أكف عن عقد المقارنات. وهذا غالبًا أهم أسباب شقائي! هما أيضًا يعقدان المقارنات دائمًا بيني وبين من هم في مثل سني سواء من العائلة أو الجيران والأقارب؛ فلانة تطيع أبويها بدون نقاش، أما أنتِ فابنة عاقّة. وفلانة تساعد أبويها بثلاثة أرباع راتبها ولا تبخل عليهما بشيء، أما أنتِ فلا ندري كم مرتبك أصلًا حتى الآن وبالتأكيد تساعدينا بربعه فقط! فلانة ماهرة في الطبخ وباستطاعها عمل كل الأصناف المحلية والغربية على نفس المائدة، أما أنتِ فكنتِ تطبخين صنفين ليس أكثر ورغم ذلك امتنعتِ أيضًا وتركتيني أخدم في البيت وخارجه وحدي، فلانة سمينة وبيضاء وشقراء، أما أنتِ فنحيفة سمراء! فلانة تزوجت وأنجبت أربعة أبناء وتعمل مع زوجها لزيادة دخلهما، أما أنتِ كالنعجة التائهة تعملين مع الحيوانات وتمسحين روثهم! ألم تستحي من نفسك يا متعلمة يا مثقفة!! ماذا تركتِ للجاهلات إذًا؟! عوضي على الله منكِ! .....إلخ. ظلت تقارن بيني وبين كل الفتيات حتى كرهتهن جميعًا سواء أعرفهن أم لا!

إن بعض الآباء يتوقّعون من أبنائهم طاعة عمياء دون مقابل، يحبون أخذ حقوقهم منهم دون أن يمنحوهم واجباتهم وفروضهم التي أنزلها الله! يمارسون ضدهم كل سبل القسوة والأذى الجسدي والنفسي ورغم ذلك ينتظرون منهم وداعة وسماحة غير عادية! يمارسون عليهم أشد أنواع

القهر والظلم ويعاملونهم كالعبيد؛ وفي الوقت ذاته يُودّون أن يُجيبوا كملائكة بأجنحة بيضاء معصومين من الخطأ، لا يحق لهم الرفض والتأفف أو على الأقل منع الأذى عن أنفسهم وإلا أصبحوا أبناء عاقِّين! حسنًا.. فليوفّروا لهذه الملائكة جنة تؤويهم؛ فهم لم يُخلَقوا ليُعَذّبوا في الجحيم! لقد عقُّوا أبناءهم قبل عقوقهم لهم.. ما لهم كيف يحكمون؟!

هناك فكرة عقيمة يقتنع بها بعض أفراد المجتمع؛ أن أي مشكلة بين الآباء والأبناء، لابد أن يكون الأبناء على خطأ، والآباء على حق دون معرفتهم بتفاصيل المشكلة! الآباء ما هم سوى بشر، تحتمل أفعالهم الصواب أو الخطأ، لكنهم قرروا أن يُقدسوهما طوال الوقت، ليس فيهم أحد يتهمهما بالتقصير في حق أبنائهما ويلقي عليهما اللوم ويذكّرهما بالله كي يتّقيا الله فيهم! ولا هما لديهما الجرأة للاعتراف بالتقصير في حقوق أبنائهما وخطئهما في تربيتهم بطريقة قاسية! أليس منكم رجلٌ رشيد؟!

العائلة إما أن تكون الدرع الواقي والسلاح الذي تواجه به مصارع الحياة، وإما أن تكون الحد الآخر للسلاح؛ الذي يقف نصله عند عُنقك طوال الوقت، فيذبحك في اليوم مائة مرة.

****

كان "هو" يكبرها بخمسة عشر عامًا، وبالتأكيد كانت تعلم ذلك من قبل زواجهما وقَبِلَت ذلك، ورغم ذلك كانت تُعيّرُه في كل خلاف بينهما أنه أصبح عجوزًا بينما هي لا تزال شابة حسناء، وكم كانت جميلة وبكامل أناقتها وتتمتع بصحتها ولكنها فقدت معظم محاسنها بين يديه! بينما هو يُعيّرها بجهلها ويُهينها لغبائها طوال الوقت -لأنه كلما حاورها في موضوع؛ لم تفهم مقصده تمامًا وتتحدث في موضوع آخر_ مثلما يُعيّرها ببساطة أهلها وفقرهم. لقد عرضوا عليه أهله عشرات الفتيات من نفس طبقته الاجتماعية ونفس مستواه العلمي وكان بينهما تكافؤ في السن أيضًا؛ لكنه أبَى إلا أن يذهب إلى إحدى القرى الريفية ويختار فتاة من هناك تُصلح كزوجة وأم وتتحمل طباعه الصعبة وفوضته وخدمته وأهله دون تأفف ولتطيعه طاعة عمياء دون جدال!

قيل أنّه كل ما بُنِيَ على باطل؛ فهو باطل! يجب على كل مُقبل على الزواج أن يختار شريكًا لحياته مناسبًا لعيوبه قبل مميزاته، بينهما نقاط كثيرة مشتركة أكثر من نقاط اختلافهما، بينهما تكافؤ فكري وثقافي، تكافؤ مادي واجتماعي. وطالما رَضِيَا عن بعضهما من البداية؛ إذ وجب عليهما التقبّل حتى النهاية دون تجريح وإلا تسريح بإحسان! بعيدًا عن التطاول الذي يحدث بينهما في كل خلاف وأمام أطفالهما، مما يسبب لهم دمارًا نفسيًا وهلاكًا روحيًا لن يُعالَج مهما حصل. فالمجروح من عائلته؛ لن تندمل جروحه أبدًا!.

"هي" ربّتنا على عدم الاستحقاق!؛ فلا يجوز لنا أن نقوم بزيارة أقاربنا ونجلس في غرفة الضيوف مُكَرّمين! بل مكاننا الطبيعي في المطبخ، منذ أن تلمس أقدامنا أرض منازلهم، ونتبادل السلام والتحيات؛ ثُمَّ تَجُرّنا أنا وأختي إلى المطبخ لنقوم بخدمة أنفسنا وتجهيز الطعام الذي سنأكله! -وبما أن أختي كانت لا تفقه شيئًا في أعمال المنزل عامة والطبخ خاصة؛ كانت تقوم بتعطيلنا بدلًا من مساعدتنا فتقوم أمها بطردها كي ننجز في وقت محدد- ثُمَّ بعد انتهاء الوجبة؛ تغمزلي كي أقوم بتنظيف المائدة والأرضيات وتنظيف الصحون، كانوا أحيانًا أصحاب البيت يحاولون منعي من المساعدة ولكنها تُقسم بالله أن يتركوني وشأني، حتى لا تُكلّف نفسها عناء ترك إحدى فتيات المنزل تساعدني في بيتها!! وما إن أنتهي من عملي حتى يهمّون بالانصراف! لكن أنا لم يتسنَّ لي أخذ قسطٍ من الراحة في غرفة الضيوف، سلبوني حقي في شعوري بالعزة؛ أنني كريمة ويقومون بتقديم الحلويات الشهية والعصائر والمُسليات! صِرتُ أكرم ضيافتهم في بيتنا وبيتهم أيضًا.. فماذا سأحيا عزيزة؟! ألا أستحق؟ حقًا لا أستحق!.

****

كانت "هي" تُخفي الطعام وتمنعنا من فتح الثلاجة إذا شعرنا بالجوع! كان كل ما فيها حكرًا للضيوف فقط! كانت تضع طعامنا وحده بعيدًا عن طعامهم، وبالتأكيد كان هناك فرق شاسع بين الطعامين! لماذا لم يحق لنا على الأقل تذوق طعامهم؟ أولسنا قدر المستوى؟! نعم نحن دومًا دون المستوى! فما كان منا سوى إبداء الفضول المميت والتطلع بأعيننا وأيادينا إلى شيء رغم أنه يخصّنا لكننا لا نستحقه! فكنا نسرق الطعام كلما سُـنحت لنا الفرصة! كانت لا تراعي أبدًا أننا أطفال لا نستطيع السيطرة على أنفسنا في بيتنا! نحن لم نكن في بيت غريب لنُمنَع من فتح ثلاجتنا وأكل طعامنا!! كان طعامنا الأرز والخبز والخضار والفول والحبوب عامة.. أما طعامهم فكان فاخرًا؛ لحومًا حمراء وبيضاء وأسماك وأشياء ذات روائح رائعة موضوعة في طواجن شهية كطعام الفنادق! هذا في وجبات الغداء، أما العشاء فكنت أرى ما لذ وطاب من جميع أنواع الجُبن، والمربى، والخبز المدهون بالزبد واللبنة، والزيتون، وشرائح اللانشون -المُدخّن- الشهية! أما عشاؤنا فكان عبارة عما تبقّى من غدائهم لكن بعدما تشوّهت ملامحه ورحلت رائحته الشهية! وبعدما نقلته "هي" من الطواجن الفخارية إلى أطباق بلاستيكية حتى لا نقوم بكسرها! كنت في البداية أشعر بالفرح الشديد لأنني أخيرًا سأتذوق طعامهم بعلمها دون أن أضطر لسرقته! -طعامهم الذي خَشِيَت عليه من العفونة فاضطرت لتقديمه لنا قبل فساده واضطرارها لإلقائه في سلات

القمامة!- ثُمَّ بعد ذلك أصبحتُ أرفض تناول فضلات الناس! أين العدل يا أهلي؟! أين عزة النفس يا نفسي؟!

كانت تطهي كافة أصناف الطعام عدا التي نريدها ونطلبها منها! رغم أنها كانت أسهل من التي تطهيها ولن تتطلّب منها نفس الوقت والجهد، لكن ولسبب لا أعلمه؛ كانت تتعمد تجاهل ذائقتنا وترحب بطلباتهم!

انعدام العدل كان لا يقتصر على الطعام وحسب بالتأكيد! كانت في المعاملة أيضًا بالطبع؛ يظهرون بشاشة وجوههم وعلى صعيد آخر لا يظهرون لنا سوى العبوس! لهم الدفء والحب والرحمة والحنان والانتباه التام لاحتياجاتهم دونما طلب وتوفير كل سبل الراحة، ولنا صقيع الروح لا الجسد وحسب! والكُره والعنف والقسوة والإهمال وتعمد النسيان لاحتياجاتنا مهما طلبنا، والفوضى طيلة الوقت وبواقي الطعام!! حتى في ليالي الشتاء الباردة؛ كانت تأخذ منا الغطاء السميك الناعم لتعطيه لهم، وتعطينا بدلًا منه غطاءً خشنًا خفيفًا لا يُدفئنا! إذ أنهما ليسا عاجزين عن المحبة؛ بل شحيحين بها علينا. والأقربون أولى بالمعروف على حد علمي! عندئذ تمنيت أن أكون في ضيافتهما مرة وحيدة قبل موتي؛ علّني أرى كرمهما بوضوح!!

كم مرة حاولت لم شمل البيت وفتح أي موضوع للنقاش بهدوء؛ لكن دون جدوى! ما إن ينفض البيت من الأقارب والضيوف -أخيرًا- إلا وأغتنم الفرصة ونبدأ بالكلام ومن ثَمَّ يتحول النقاش -فجأة- إلى جدال، ثُمَّ إلى

مناوشات، ثُمَّ إلى ثورة شتائم، ثُمَّ إلى تهديد بالطرد خارج البيت والمبيت مع كلاب الشوارع، فيهرع كل منا إلى غرفته سريعًا قبلما يتصعّد الأمر وتتسعَّر النيران وتنشب الحرائق في كل مكان!. كانت أقصى أمنياتي أن ينتهي نقاشنا بالهدوء الذي بدأناه به وأن نصل إلى حل للمشكلة لا لينتهي كما بدأ وكأن حديثًا لم يكن!.

لقد حاول "هو" ذات مرة أن ينشئ "جلسة صراحة" عندما رآنا صامتين لا نتحدث معهما ولا مع بعضنا لأكثر من أربعة أيام وكان البيت حينها فارغًا بمحض المصادفة فتسنَّى له الملاحظة -رغم أنها ملاحظة متأخرة جدًا، لكن حمدت الله أنها أتت حتى لو متأخرة وأخيرًا أحدهما سيهتم لحزننا!- فنادانا جميعًا، ثُمَّ طلب منا الجلوس حلقة؛ ففعلنا، ثُمَّ بدأ بالحديث: مالي أراكم صامتين؟ لماذا أنتم حزانى هكذا؟! تحدثوا حتى لو أنا أو أمكم السبب لا بأس، سنحاول حل النزاع وليأخذ كل ذي حق حقه!

ما إن بدأ أخي بالحديث -بحذر وخوف من ردة فعلهما- فعاتبهما على صراخهما المستمر وعدم استطاعة كل منهما فهم الآخر وكم يؤثر علينا عدم تفاهمهما واحترامهما لبعضهما علينا بالسلب، وكم نحن كبرنا ولم نعد صغارًا كما هما لم يعودا عروسًا وعريسًا في بداية حياتهما الزوجية ليتصرّفا كأنهما لازالا شبابًا؛ إلا وانفجرا في وجهه، ثُمَّ قاما وانصرفا وتركانا نحل النزاع وحدنا! ولم يُعطَ كل ذي حق حقه!.

وكانت هي أول وآخر جلسة صراحة نعقدها في بيتنا الدافئ! الغريب أنه هو مَن بدأ بها، إذ كان عليه الصبر والتحمل والإنصات للنهاية، وأن يلجأ إلى محاولة صادقة للإنصات على الأقل حتى لو لم يحل الأمر، فالإنصات نصف العلاج، كان عليه أن يهدأ قليلًا ليرى ماذا نرى وكيف هي صورتهما في أعيننا؟! كان عليها أن ترخي الحبل عندما يشده، لا لتشد معه فننقطع نحن معه للأبد!!.

كم مرة قمت بقراءة مقالات عن التربية السليمة وتربية الأبناء على المنهاج الإسلامي، وودت أن يقرأه فقط قراءة عابرة -ليس بالضرورة أن يفعلا بما يقرأان، فقط مجرد العلم بالشيء- لكنهما يتحججا دومًا بعدم التفرغ! "بعدين بعدين!"

لكنهما مصابون بداء الجهل الذي ليس له علاج! لو كان بإمكاني أن أصب تلك المقالات على ملعقة وأسقيهما أو أُعبّئها في سرنجة دواء وأحقن بها أوردتهما؛ لفعلت! ما توصّلتُ إليه أنهما خائفان أن يتعلّما أي شيء جديد فيُصبح بالتالي حُجّة عليهما! خائفان من تطوير طريقة فهمهما للحياة ومواكبة العصر! خائفان من الخروج من طور الجهل والركود الفكري الذي عاشا به دهرًا، سائران بمبدأ: "ما نعلمه؛ بالتأكيد خير مما لا نعلمه" رغم أن الذي لا يعلمانه؛ خير بكثير وأفضل مما يعلمانه لكنهما لا يُحبّان أن يعطيا لأنفسهما ولنا الفرصة! فنجد السنوات تمر علينا ونحن لا نتحرك من

أماكننا قدر أُنملة، ولو مرت ألف ألف سنة؛ سنظل في نفس البؤرة السوداء بداخل ذلك القمقم الصدئ!

اكتشفت فيما بعد أنهما مصابان بمرض نفسي يُدعى "الدوغمائية" وهي حالة من الجمود الفكري، حيث يتعصب فيها الشخص لأفكارهِ الخاصة لدرجة رفضهِ الاطلاع على الأفكار المخالفة، وإن ظهرت لهُ الدلائل التي تثبت لهُ أن أفكارهُ خاطئة، سيحاربها بكل ما أوتي من قوة، ويصارع من أجل إثبات صحة أفكارهِ وآرائهِ، وتعتبر حالة شديدة من التعصب للأفكار والمبادئ والقناعات، لدرجة معاداة كل ما يختلف عنها. وهي تعدّ حالة من التزمُّت لفكرة معينة دون قبول النقاش فيها أو على الأقل الإتيان بأي دليل يناقضها لأجل مناقشته!. وكأن الدراسة نُشِرَت من أجلهما وحدهما!

كان جُلَّ خطئي في هذا البيت؛ أنني شخصية مُتجددة كنبع المياه الصافي، لكنني كنت أركد وأموت في بيت تقليدي يسير وفقًا لروتين ممل، كل شيء يحدث كل يوم بنفس الترتيب لا يتغير! شيء يدعو للموت لا الحياة حقًا! وأنا كنت متفائلة متطورة أحب الشمس والنور والبهجة، أحب الحياة المرحة؛ لذلك بحثت خارج البيت عن حياة تُنصفني وتسير وفقًا لرؤيتي وحاجتي من الدنيا! أنا لا أكره والديَّ ولكنهما لم يفعلا أي شيء يجبرني أن أحبهما بالفطرة! وُلدت ووُلد بداخلي قهرًا كوحش يكبر معي كل يوم حتى صار أكبر مني وصار يأكلني من الداخل ولم أعد أستطيع السيطرة عليه!

كنت أرى بعض آباء أصدقائي؛ يقفون بجانبهم داعمين لهم في كل خطوة كانوا يُقبلون عليها حتى لو لم يكونوا راضين عنها بنسبة كبيرة لكنهم يكتفون بالدعم وترك حرية الاختيار وتحمّل نتيجة القرار لأبنائهم، أما أنا فلا! -كنت أغبطهم، ثُمَّ صرت أحقد عليهم! وتناسيت أن حنان الآباء؛ رزق وليس كل الأبناء قد رُزِقوا إياه!-

ما إن يعلموا أي شيء عني؛ إلا ويشرعوا في وصلة الإحباط والتثبيط من عزيمتي والتخويف من كل مرحلة سوف أمُرّ بها -حتى لو لم تكن بها أي صعوبة أو أي سبب يدعو للخوف أصلًا- والتشكيك في كل الناس الذين سأتعامل معهم! فيؤول بي المطاف إلى التوقف عن السير في دربي قبل البداية! -معظم الوقت-

بتُّ أصمت نهائيًا بمجرد أن تخطر ببالي أي فكرة لتطوير ذاتي؛ سواء للاشتراك في أحد أنشطة الجامعة -الثقافية- أو تطوير عملي بالإكثار من قراءة الأبحاث التي كُتِبَت عن كيفية فهم سلوك الحيوان لكيفية تسهيل التعامل معهم -بالتأكيد- بمجرد فهم لغتهم والتحدث إليهم ومدى استجابة صحتهم النفسية بتنويع الطعام الذي كنت أقوم بتقديمه إليهم ومدى الترابط الذي نشأ بيننا بالاهتمام المبالغ فيه وكثرة اللمس باليد أو بالأحضان، وتنمية مهاراتي ومواهبي والاشتراك في الندوات والدورات العلمية التي كنت أحضرها سواء بالذهاب إلى مقرها بعد التنسيق مع إدارة العمل، أو بالحضور عبر الإنترنت سواء كانت مجانية أو مدفوعة مُقدمًا.

كنت أدخر شهورًا من رواتبي كي أبتاع جهاز كمبيوتر محمول كي يتسنى لي المشاركة في كافة أنشطتي؛ ما إن رأت "هي" المبلغ المُدَّخَر بداخل حقيبتي الموضوعة بعناية بداخل أحد أدراج خزانة ثيابي بغرفتي؛ إلا وعَلَا صراخها بأنني سارقة! فالتف كل مَن بالبيت من أقارب ومعارف حولها وأتى "هو" بدوره ليقوم بالبحث والتحرِّي قبل عودتي من عملي، لكنني لم ألبث حتى عدت وانخلع قلبي من شكل الفوضى في غرفتي! كانا يبحثان عن أي مواد مُخدِّرة أقوم ببيعها لأقبض هذا المبلغ من عملي غير المشروع!! أُصبتُ بالخرس من هول الصدمة بحق! لم أستطع التفوّه بكلمة حينها، ماذا أقول ولمن؟!! للتي تُدعى "أمي" التي تصرفت بحماقة كعادتها ونادت الجمع الغفير ليشهد سوء خُلُق ابنتها دون تحرّي الدقة عن الخبر؟! أم للذي يُدعى "أبي" الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا ويتفوّق عليها بدرجات علمية ومن المفترض أن يكون ناضجًا بما يكفي ليُحسن الظن بي ويحاول تَفَهّم الوضع -ولاسيما أنهما لم يريا مني أي موقف سابق يدل على ثرائي الفاحش بين عشيّة وضحاها!- مَرّ سنتين وبضع شهور من أول راتب قبضته من عملي وحتى تلك اللحظة؛ فترة كافية لتوفير مبلغ أكثر منه من رواتب فترتين عمل وبدون عُطلات! لكنني أعتمد على ذاتي ولا أجعل يدي هي السفلى بل هي العليا، وبعدما رفعت عن ظهورهما حِمل تسديد إيجار البيت شهريًا؛ تحمّلت بالإجبار فاتورة الكهرباء أيضًا، بعدما منعاني من شرائه لأنه من الرفاهيات الزائدة عن احتياجاتنا! لماذا وضعا "نا" في نهاية الكلمة؟! هي

احتياجاتي أنا وحدي، ووحدي مَن يُقرر ما هو المهم وما هو الأهم وما هو الذي يُعَدّ من الرفاهيات بالنسبة إليَّ!!

ورغم ذلك لم أنطق بكلمة، كنت لا أود أن أبرر لنفسي وأقسم بطهارة شرفي وصدق موقفي، فعلى كل حال لست متهمة -على الأقل في نظري أنا!- وهما لن يُصدّقان سوى الذي يجول بخاطرهما مهما أقسمت بكل الكتب السماوية! -بعدها بفترة؛ ابتعته ووضعته في عملي ولم أجلبه إلى البيت! كنت أود لو مارست حياتي بحرية وبعلمهما دون اللجوء للاختباء ولاسيما أنني لا أفعل شيئًا عيبًا أو حرامًا، لكنه مرض التسلط القهري!-

صمتا بدورهما.. وكأنه كان هناك في قرارة نفس كل منهما؛ شيء بعيد يشي بمصداقيّتي لكنهما أبيا أن يُنصتا إليه!.

"طبعًا لن نضغط عليكِ ولن نجبرك على تحمل مالا تطيقين، كوني على راحتك فهو بيتك أيضًا وعليكِ المشاركة في بعض مصاريفه أنتِ وأخوكِ وعليكِ تجهيز نفسك يا عروس! فها هم العرسان يقفون على الباب يطرقون منتظرين اختيارك لمن يُناسبك! ونحن بالكاد نشتري بالمعاش ما يكفينا من طعام وسداد الفواتير، ولن نساهم في تجهيزكما، فأخوكِ أخذ كل ما بجيوبنا وهو يجهز بيته! فلا بأس من تقديم المساعدة لنفسك ولنا! لابد أن تشكري النعمة بشُكر المُنعم بتقديم البر على الوجه الذي يُرضينا، بالطبع لكِ مُطلق الحرية بالموافقة أو الرفض، لكنك لستِ بحاجة لنُذكّرك أنكِ لن

تظلي تنعمين بحُريّتك طويلًا! في النهاية لا نرى فائدة كبيرة من عملك! فقط تستغلينه لشراء التوافه وتغضّين الطرف عن الأساسيات!!".

هكذا كان المبدأ الذي يسيران عليه؛ يُجبراني على أي شيء، ثُمَّ يقولان: على راحتك طبعًا! يقومان بتهديدي طيلة الوقت بترك عملي ودراستي، ثُمَّ يُتبعان جُملتهما بـ: بالطبع لن نضغط عليكِ ولن نجبرك! هل أصابكما الجنون أم أنكما تريدان جنوني؟!

حسنًا.. إن لم أستجب لتهديداتكما ماذا سيحدث؟ ستجبراني على ترك عملي ودراستي؟ حسنًا ثُمَّ ماذا بعد؟! مَن سيتكفل بدفع المنحة الشهرية؟! مَن الذي يجب عليه منح المساعدة للآخر؟! لقد قُلِبَت الموازين على ما يبدو!! مددتُ إليكما إصبعي؛ فطمعتما بذراعيَّ!!

منذ زمن ليس بقريب وأنا كلما أردت شراء شيء ما وفضفضت بما يجول بصدري -فقط مجرد فضفضة بطموح عالٍ تمنيت أن أبلغه يومًا-؛ قلتما: من أين؟ أنتِ تعلمين البئر وغطاءها؟ الظروف لا تسمح الآن.. وحتى الآن الظروف لم ولن تسمح أبدًا!

لو كنت استجبت لإحباطاتهما؛ لَمَا كنت بلغت أي طموح وحققت أي هدف! لَمَا كانت لحياتي أي قيمة؛ وهل للحياة قيمة دونما تحقيق الأهداف؟! حقًا أنا مُشفقة على الذين يموتون في الدنيا بلا هدف -نعم يموتون لا يحيون!- أن يسير أحدهم كالتائه البليد في دروب الحياة الوعرة؛ بلا بوصلة ولا خريطة! لا يفعل أي شيء ليُنقذه من تيهه! مُستسلمًا للأمر الواقع،

يظل يبكي ويلطم خده ويندب حظه منتظرًا المعجزة الإلهية التي تمده باليد الملائكية التي ستنتشله من الوحل الذي أغرق نفسه به!

ورغم ذلك لم أسلم من نوبات "جلد الذات" التي أرهقتني أكثر منهما! منذ طفولتي وأنا أحارب ذاتي في حلبة مصارعة كي أحصل على أعلى الدرجات وعندما كبرت؛ لم أتنحَّ عن دربي المؤلم بل على العكس! سرت به بكامل وعيي الجاهل! لعلهما يرضيا عني!

لكنني حصلت على نتيجة مُرعبة؛ أنهما لم ولن يرضيا، وحتى أنا لم ولن أرضى عن نفسي أبدًا!

بعد كل موقف؛ يزيد في دمي هرمون النفس اللوّامة! ألوم نفسي على ما حدث -حتى لو لم أكن أنا المخطئة- وألومها على ما يحدث وما سيحدث على سبيل الاحتياط! كنت أظن أنني بذلك أقوم بترفُّعي عن الخطأ واجتنابه فيما بعد؛ لكن إنّ بعض الظنّ إثم! لم أسمح لنفسي بمساحة حرة من الخطأ المحمود دون أن ألحقه بتأنيب الضمير الذي كان يفوق الخطأ ذاته!

ماذا كانا ينتظران مني؟! أن أصبح ملاكًا معصومًا من الخطأ؟ نعم.. حتى اقتنعت بفكرتهما الفاشلة ونسيت أنني بشر من حقه أن يخطئ ويذنب ويتوب ويتعلم من خطئه دون لوم مبالغ فيه! لقد استجبتُ لرغباتهما -غير المقصودة- ودمّرت نفسي بنفسي! كنت ألوم نفسي على لومي لنفسي! حتى بتُّ أحتقر ذاتي وأؤمن بعدم الاستحقاق سوى الأذى! فلم أجنِ من أرضي سوى الحصاد الفاسد! لأنني لم أعتنِ بها كما ينبغي، لم أسقِها بماء

صالح ينبض بالحياة! ما زرعت في أرضي سوى الحزن والكآبة وجلد الذات والسخط عليَّ وعليهم وعلى العالم كله، واستسلمت لجفافها ولم أحرك ساكنًا لإنقاذها من التيبُس! فكيف لأرض بور أن تطرح تَمْرًا؟! وكيف لنفس تركتُها للموت كل يوم أن تملأ العالم بضحكاتها المرحة أو أن ترقص فرحًا فوق تلال الألم غير آبهة بالجروح أسفل قدميها!

كنت أحيا على أمل كاذب! فلم أجنِ سوى السراب.

ومن هنا بدأت ندوبي في الظهور!!...

بدأ شعري يتساقط دون سبب عضوي، وظهرت على أماكن متفرقة في جسدي بقع زرقاء وحمراء تُشبه الكدمات، زادت الهالات السوداء حول عيني من قلة النوم وكثرة البكاء، وأكثرت من قضم أظافري دون انتباه حتى شوَّهت شكل أناملي! لاحظت أنني أقوم بهزّ إحدى قدميّ طوال الوقت من فرط التوتر والقلق والخوف، رغم أنه لم يكن يحدث شيء مُعيّن يسبب هذه المشاعر لكنها التراكمات وفرط انتباه عقلي اللاواعي!

****

"هو" مصاب بالازدواجية؛ بينما يتحدث مع كل النساء سواء كُنّ محارمه أو لا، يمد يده بالسلام عليهن، وأحيانًا يقوم بعناقهن! ويقهقه ضحكًا ومرحًا في جلساته ومكالماته معهن، هاتفه لا يكُفّ عن الرنين طوال الوقت لأنه قد عيَّن نفسه مُصلحًا اجتماعيًا، وسمح لنفسه التدخل بين الزوجين لحل مشاكلهما، وبين الأخوات، وبين الجيران، والأقارب والمعارف والغرباء أيضًا.. وبطبيعة الحال؛ لم يقتصر الحديث على حل المشاكل، هناك فضفضة دون هدف، سواء بقصد حل المشكلة أم هكذا لأنهن يرتحن معه في الحديث! وفي الوقت ذاته يمنعها "هي" من مجرد رد السلام على الرجال رغم أنهم من الأقارب! لقد نشبت بينهما مئات المعارك التي انتهت بلطمها وضربها فقط لأنها استجابت لطلب أحدهم -في أحد الولائم- بمَلء صحنه بالطعام أو صنع كوبٍ من الشاي بعد الطعام، أو لأنها تسأل عن حال زوجته وأولاده وعن سبب عدم مجيئهم معه! حينئذ تقوم القيامة في بيتنا وتظل قائمة لشهر على الأقل!

حسنًا.. بما أن الحديث مع الجنس الآخر يُعد خطأً مُحرّمًا في العُرف والدين؛ إذًا فهو حرام على الجنسين!

رغم أنها لم تتعدَّ حدودها أبدًا وتجيب على قدر الكلام وتحترم نفسها وتحترمه سواء في وجوده أو غيابه عن المكان! بينما هو لا يبادلها الاحترام ذاته! بل ويتعدى كل الحدود! ولم يكن لها الحق يومًا في الاعتراض!

بينما يُنكر تدخين أحد النساء في وليمة ما، وأنه فعل شنيع وغير مألوف وكان ينظر لها بعين الاشمئزاز والاحتقار؛ كان في المقابل يُشعل سيجارته ويُنفث دخانها في وجوهنا!!

بينما يتحدث عن الدين؛ كان هو أبعد ما يكون عنه! وبينما يتحدث عن حرية الرأي والتعبير واحترام رأي الآخر مهما كان مخالفًا لرأينا؛ كان يُقابل رأينا بالهجوم وأحيانًا بالسباب واتهامنا بالجهل! نعم.. في الحقيقة كان يود في كل مرة أن يُثبت لنا أنه لم يرزق الله الحكمة والفهم أحدٌ غيره!

اكتشفت فيما بعد أنه لم يكن مريضًا بالبارانويا فقط وإنما بالنرجسية أيضًا؛ لأنه كان يتصرف بأسلوب متعجرف ومتغطرس، يقوم بالتبجُّح والتفاخر بنفسه ولا يحترم أحدًا مهما كان أكبر منه سنًا أو مقامًا، ولاسيما عندما يخالفه أحد في رأيه؛ ينفجر غضبًا وازدراءً ويحاول التقليل من شأن الآخرين طوال الوقت -باعتبار أنه بذلك يرفع من شأنه- ولا يستطيع كبح جماح غضبه أبدًا، ويواجه مشاكل كبيرة في التعامل مع الضغوط والتكيف مع تغيير الحال للأسوأ أو تطويره للأفضل!.

أما "هي" فكثيرًا ما كانت تُفسد الطعام الذي أقوم بطهْيه؛ لتُثبت للجميع أنني غير قادرة على صنع وجبات شهية مثلها! كنت في البداية أُحسن الظن وأتهم نفسي بعدم التركيز والنسيان؛ الطعام شديد الملوحة؟ لأنني بالتأكيد نسيت وكررت وضع الملح دونما انتباه، الأرز عبارة عن عجين أبيض بداخل الوعاء؟ لأنني طبعًا نسيت ووضعت ماء مرتين دونما انتباه! كنت

أشكُّ في نفسي قبلما أرمي الفشل على شماعتها ولاسيما أنه لا يوجد غيرنا في المطبخ!! حتى رأيتها بأم عيني فور خروجي من المطبخ؛ راقبتها لأجدها تدخل وترفع غطاء القِدر وتسكب الملح وتزيد من حرارة الموقد ليحترق الطعام وتنهال الشتائم عليَّ أنا!! لماذا تفعلين هكذا يا أمي؟! أنا أُقدِّم لكِ البر والعون وأنتِ تلصقين التُّهم في ذيلي؟! أُساعدك في طهي صنفين أو أكثر لتنجزي وتُقدِّمي الطعام في موعده قبل انصرافي لعملي؛ بينما أنتِ تُفسدين جهدي وتُكللين تعبي بالفشل! كان بإمكانك رفض عوني بمنتهى البساطة، وأنا سأُوفِّر مجهودي وتركيزي لدراستي وعملي ونفسي! أنا شككتُ في ذاتي كي لا أتهمك ظلمًا وافتراءً!! بينما أنتِ ظلمتِني دونما رحمة!

-ومن بعدها كففتُ عن تقديم أي نوع من أنواع المساعدة حتى احتد أسلوبها معي أكثر من حدته العادية! كانت تشتكي "له" مني؛ فكان يحتد هو الآخر، وأنا أتجاهل الموضوع كأنه لا يخصّني! على كل حال لست مشكورة ولن يرضيا عني سواء قدمت العون أو منعته! لقد نتجت قسوتهما معي عن؛ تعمُّد العقوق بضمير مرتاح!- كنت حينها في حالة صدمة كبيرة ورافقني الذهول أيامًا بعدها!

في الأحيان الطبيعية: عندما تُصدَم الفتاة من الجميع؛ تفر منهم إلى حضن أمها لتبكي، فتمسح الأم على رأسها بحنان وتُهدهدها وتُخفف من وطئة فزعها، لتُخبرها أنها هنا بجانبها وكل شيء سيكون على ما يرام، فتزيد من عزمها وتُقوّيها وتدعمها وتنصحها أن العالم ليس بحاجة لمزيد من

الضعفاء والجبناء وأنه لابد أن تكون قوية بما يكفي لتواجه الدنيا. لكن عندما تُصدَم من أمها فأين المفر؟!

كنت أرى تصرفاتها الغريبة قبل ذلك اليوم ولاسيما أمام الناس؛ كانت وكأنها تتعمد أن تجرحني وتحرجني ورغم ذلك كنت ألتمس لها الأعذار، أقول في نفسي أنها مضغوطة من فرط الأحمال فوق ظهرها، أقول أنها اشتاقت لأهلها، أو أنه يُشدد قبضته حول جيدها ولم تستطع التنفس! لكنني لم أكن أتخيل أبدًا أنها تغار مني وتتعمد إيذائي لهذه الدرجة! لم أكن أتصور يومًا أن أرى أم تغار من ابنتها التي من المفترض أن تحب رؤيتها في أفضل صورة وربما أفضل منها هي شخصيًا! وعندما تحين الفرصة لرؤية "أُمّ" كهذه؛ تكون أمي؟!

ذلك الموقف هزّني بشدة مما جعلني أنتبه لبقية المواقف قبله؛ كم مرة نهرتني وأنا واقفة عند باب المنزل أستعد للخروج لجامعتي أو عملي وأجبرتني على تبديل ملابسي بلا سبب منطقي فقط غضب غير مبرر تتبعه عصبية مفرطة ولم تهدأ إلا بتغيير ثيابي فعلًا كي أستطيع الخروج! كنت أتحدث معها فور عودتي لأفهم سبب غضبها من ثياب فضفاضة ذات ألوان غير مُلفتة للنظر وطويلة وأنيقة ومتناسقة مع بعضها! إلا أنني لا أجد ردًا منها سوى كلام غير مقنع؛ أنها غير لائقة على لون بشرتك!! نعم بشرتي سمراء لكنني أفهم جيدًا في تناسق الألوان وهذا الفستان الأزرق الزهري ذو الحزام الفضي وفوقه الحجاب الفضي والحذاء الفضي؛ جميعهم يناسبون لون

بشرتي جدًا! ولأنهم يناسبونني جدًا؛ كانت مُصرّة على نزعهم! كان يعزّ عليّ استيعاب الموقف كما هو! غيرتها مني وإصرارها على تقبيحي وإفساد أناقتي ومزاياي طيلة الوقت؛ ليس بأمر هيِّن أبدًا!!

كانت تُعمم السيئة عندما يُخطئ أحد منا؛ تسبّنا جميعًا وتنهرنا وتظل تُعدد مساوءنا وكأنه لا خير فينا أبدًا! وبالتأكيد كانت لا تراعي وجود الناس! لكن إذا حاولنا إظهار مزايانا لنيْل رضاهم؛ تغض الطرف عنها وتتجاهل الموقف تمامًا كأنه هواء شفاف لا يُرى! ما عدا مزايا ابنها الأكبر طبعًا؛ فهو وُلد معصوم لم يُخطئ أبدًا وإذا أخطأ؛ تقوم بالتبرير له وتغض الطرف عن أخطائه ولا تحاول ذكرها حتى تتلاشى من تلقاء نفسها!.

حتى كانت تتعمد التقليل من شأني أمام أصدقائي وتبث إليهم شكواها مني وكم أنني ابنة عاقّة ولا أبرّها وأكسب رضاها! أقسم أنني لا أدري ما السبب وراء ذلك! ما الداعي من تشتيتها للجمع من حولي؟! ما الهدف من إبعادهم عني؟ على الرغم من أن بعضهن فقط بدأن بالاستجابة لها بالتدريج ورأين أنني فعلًا منبع الشر وابتعدن عني حتى إنهن لم يُكلّفن أنفسهن عناء إلقاء السلام عليّ ولو من بعيد! فالابنة التي تعقّ والديها وهما لازالا على قيد الحياة؛ ماذا هي بفاعلة لأصدقائها الذين عرفتهم منذ ثلاث سنوات ونصف فقط؟! والباقيات تضامنّ معي حبًا وكرامة ولا أدري ما سبب تصديقهن لي أيضًا!

تفرّقت الدائرة الكبيرة وانفضوا من حولي حتى صرنا أربعة فتيات بعدما كنا إحدى عشر! فلم أعاتب أحدًا على هجرانه؛ لأن التي ألقت الاتهامات هي "أمي"!! الصادقة بالتأكيد! كيف لأم سويّة أن تسخط على ابنتها وتغضب عليها وتتهمها بالعقوق دونما أسباب هكذا؟ وهل هناك دخان يُنفَث ويتصاعد دون إشعال النيران؟! وبطبيعة الحال انشغلت كل منا في حياتها والتحضير للاختبارات النهائية وتجهيز مشروع التخرج حتى بِتْنا نتقابل بالمصادفة وبالتدريج صرنا نتهاتف عند الضرورة، ثُمَّ انقطعت الاتصالات إلا من واحدة فقط هي التي ظلت باقية على العهد حتى بعدما انتهت الدراسة وظهرت النتيجة وعلمت أنني تفوّقت بجدارة وحصلتُ على درجة امتياز مع مرتبة الشرف لأنني كنت أحصل على الامتياز طيلة سنوات دراستي ولله الحمد.

وانتهت أخيرًا مرحلة دراستي.. وكأنها عبء ثقيل ورُفِع من فوق صدري! ليس لشيء سوى للاتصالات الهاتفية السلبية للأقارب التي استمرت أربعة سنوات دون ملل!

سبحان الله.. يمكن للناس أن يتوقفوا عن فعل شيء ما مهما كان فعل خير؛ لمجرد شعورهم بالملل تجاهه، لكنهم لن يتوقفوا أبدًا عن أذى الآخرين واستباحة حقوقهم وماء وجوههم؛ لا كلل، لا ملل، لا تأنيب ضمير على المَنّ والأذى، لا اعتراف بالذنب. مستمرون بخطى ثابتة وكأنهم يسيرون على الصراط المستقيم في طريقهم إلى الجنة!

في كل تجمع عائلي أو مكالمة:

ـ خالي: هيا ركزي في دراستك كي تتفوقي وترفعي رؤوسنا ويحق لنا الفخر بكِ على رؤوس الأشهاد!

(لماذا تفخر بي على رؤوس الأشهاد؟ ولماذا رؤوسكم منحنية أصلًا؟ هل جلبت إليكم العار يومًا؟ هل كنت مفضوحة وتريد تبرئتي من فعل ما؟!)

ـ عمي: هيا تفوقي كي تجذبي عريسًا متفوقًا بدوره وتذكَّري أن الطبيب والمهندس لا يتزوجان سوى من المتفوقات مثلهما!

(وهل أنا كنت ألتحق بدراستي وأهتمّ بثقافتي خارج حدود دراستي فقط لأتزوج الطبيب والمهندس أو لأتزوج أصلًا؟!)

ـ خالتي: هيا تفوقي كي تلتحقي بعمل أفضل من محل البهائم الذي تعملين فيه وتنظفين روثهم، وكأنك جاهلة لم تتعلمي حرفًا، كنت أتمنى طوال حياتي أن تتخرجي من جامعة محترمة وتلتحقي بعمل محترم تنفقين منه على أمك ونفسك ولا تحتاجين شيئًا من أحد! طوال حياتي كنت أضرب بك المثل لأولادي لتكوني لهم قدوة حتى توقفتُ عندما التحقتِ بهذا العمل الحقير! ما فائدة ثقافتك إذًا وقد ذهبت هباءً!

(اسمه متجر لإيواء الحيوانات وعملي فيه لا ينقص من قدري شيئًا، أنا التحقت به بكامل وعيي وإرادتي ولم أنظف روثهم؛ لأن هناك من هو مسؤول عن ذلك ولا يعيبه عمله ولا ينقص من قدره أيضًا، ولست مخلوقة خصيصًا كي تضربي بي المثل لأولادك ولست قدوة لأحد، لهم حياتهم

ولي حياتي وكل منا حر في اختيار ما يناسبه، وهذا ما يناسبني ولقد كان إضافة عظيمة لشخصيتي عندما تعمقت في علم نفس الحيوان القريب جدًا لعلم نفس الإنسان كما قال الله: "أمم أمثالكم". وأصبحت لديّ خبرة ممتازة في الطب البيطري كما لو كنت طبيبة فعلًا، وصرت أعلم نوع التطعيمات التي يحتاجها كل حيوان وكمية كل جرعة ومواعيدها ونوع الطعام المفيد وما المسموح به وما المحظور، وما العلاج الفعال لكل مرض وكيفية وقايتهم من الأمراض حفاظًا على حياتهم وحفاظًا علينا من العدوى.... إلخ).

ـ عمتي: هيا لقد مللنا من إرسال مصروفاتك وبات حِملك ثقيل جدًا، ونحن نفعل الخير فقط لأخينا وليس لك ولأمك لو تعلمين!

(آه لو تعلمين أنتِ أنني لا أمد يدي لأخيكِ وأطالبه بالمائة جنيه التي تتصدقين بها علينا كل سنة، ولستُ بحاجة لا إليكِ ولا لأخيكِ، وأن عملي هو الداعم الأول والأخير لي وهذا من فضل ربي عليَّ!)

ـ "هي وهو": انجحي من أجلنا، إياك أن تفشلي بعدما صبرنا عليكِ وجاهدنا معك وأنفقنا على تعليمك واحتياجاتك التافهة، لعلك بعد كل هذا المرار تنجحين وتعوّضينا بعملٍ ـيناسب شهادتكـ ذي راتب كبير وبتفرُّغك لنا وجهدك معنا فيما يحتاج البيت ولاسيما أيام الولائم!

(كدت أفقد روحي وتتقطّع أنفاسي من فرط الضحك!)

كنت أسمع خبث حديثهم وأجيبهم بابتسامة صفراء وفي المقابل كنت أطفئ حريق صدري المشتعل بالكلمات التي وجب عليَّ قولها لكنني آثرت الصمت!

كنت حريصة على حضور كل المناسبات والتجمعات العائلية ولا أفوّت مكالمة إلا وقمت بالرد عليها، حتى بتُّ بالتدريج أتفلّت منهم وأكتفي بتجمّعاتهم في بيتنا الدافئ، فعلى كل حال؛ حريق الأعصاب عشر مرات كل أسبوعين؛ خير من خمسين مرة كل يوم!

جميعهم منتظرين تفوّقي بفارغ الصبر؛ من أجلهم وليس من أجلي أنا! من أجل مظهر العائلة من الناحية الاجتماعية، وفخرهم بي بين الجيران والمعارف؛ لقد تخرّجَت من جامعة كذا من كُلية كذا والتحقَت بعمل كذا وراتبها كذا، هل لديكم عريس يناسب مزاياها يا ترى؟ لكن احذروا أن يقل عن مزاياها، أهم شيء خريج كلية من كليات القمة ولديه عمله الخاص الذي يضمن لها حياة مستقرة، نحن لا نريد موظف حياته المهنية على كف عفريت! لا نريد عملًا غير ثابت ذا دخل قليل؛ فمصاريفها كثيرة واحتياجاتها أكثر، لقد اعتادت على المال ينساب من بين يديها كالماء! ونحن لا نريد معاركَ بينهما بسبب المال، ليس لدينا بنات مطلقات في العائلة!!

أهذه فكرتكم الوحيدة عن أسباب الطلاق، أن الطلاق يحدث بسبب المال والمعارك عليه؟!

أهذه فكرتكم عن اختيار زوج مناسب لي؟ فقط لينتشلني من الضياع الذي أنا فيه ويغدق علينا بالمال لتحسين مستوى معيشتنا؟! منذ متى وكان فرض على زوج الابنة الانفاق على أهلها؟! منذ متى وكان فقط الهدف من الزواج هو التكفل المادي؟!

كنت لا أدري بماذا أجيب كل فرد على حدة، كنت بحاجة إلى محاضرات ومرافعات كمحامية في ساحة القضاء تتشدق بالبراهين لضمان براءة موكّلها! ولم تكن لديّ طاقة التفسير هذه، فكنت أؤثر الصمت في كل مرة لكن حقا أعانني الله على القنابل الموقوتة في قلبي، أخشى انفجارها في أي وقت!

****

عدت أتساءل لماذا شوَّهت صورتي في أعينهن؟! كانت تظن أنني بذلك سأتقرّب منها لتكن صديقتي الوحيدة بدلًا منهن! ما هذا بحق الجحيم؟! معقولة هو "حب امتلاك"؟!

تريدني لها وحدها؟ وبهذه الطريقة البشعة؟!

وقبل إخبارهم بنجاحي؛ ذهبت إليها لأواجهها، فربما إذا عُرف السبب؛ بطُلَ العجب! حقًا كدت أجنّ، لقد عصرت مُخي لأصل إلى السبب وراء ذلك الفعل المُشين ولم أصل بعد، ولم أستطع تجاوز الأمر، وصرت وحيدة وانتهى الموضوع، لكنني حقًا أريد أن أفهم فقط.. أوليس هذا من حقي يا بشر!.

أجابت وليتها لم تجِب!: أنتِ لستِ خبيرة في الناس بما يكفي لتكوّني صداقات بهذا العدد! لقد خشيت عليكِ من الأذى، فكلما قلّت دائرة معارفك؛ قلّت مشاكلك بالتأكيد! أن تكون لديكِ صديقة واحدة مخلصة تُصدّقكِ وتتضامن معكِ وتُساندكِ على أية حال؛ أفضل من المئات حولك بلا فائدة! لقد اختبرتهن وسقطن في الاختبار بجدارة! كنت أنتظر منكِ "شكرًا" لكنكِ أتيتِ تُهاجمينني وتنفثين غضبك في وجهي بلا أدب! كنت أحسبكِ أذكى من ذلك لكن مع الأسف؛ قراءة العشرات من الكتب وحضور الدورات الثقافية والالتحاق بتعليم عالٍ، كل ذلك بلا قيمة مقارنة بالمواقف العملية! لقد رسبتِ أنتِ أيضًا في الاختبار! وعليكِ إعادة النظر في حكمتك مجددًا يا فيلسوفة عصرك!

وهل لابد من تشويه سُمعتي لاختبار صلابة صداقتنا؟! ألم تكن هناك أيّة طريقة أخرى للوصول لنفس الهدف؟! أنتِ دمّرتِني وانفضوا من حولي بسببك وكالعادة تظلميني!

ظلت تبكي وتنوح وترتفع شهقاتها لأنني ابنة عاقّة ولا أُقَدِّر ما يفعلانه من أجلي دومًا! وكالعادة أنا دومًا ساخطة ولا يروق لي أي شيء؟!

ظلت تدعي ربها أن يلعنني ألف مرة وأتذوق من نفس الكأس الذي أذقتها منه! وأنا أردد: آمين! ليتني فعلًا أشرب كل ما أسقيتها منه فأنا في أتم الاستعداد لذلك والله وحده يعلم.

من فرط استخدام لفظة "عاقّة" بتُّ أستسيغها حتى صدَّقتُها فعلًا! وشرعت في رؤية نفسي بأعينهما حتى كرهت ذاتي واستحقرتها جدًا! ولم أستطِع الفرحة بنجاحي الساحق!

لقد علموا بالمصادفة من صديقتي عندما هاتفتني وأجابتها "هي" من الهاتف المنزلي -فحينها لم أكن قد ابتعت هاتفًا محمولًا آخر- عمومًا لم تُشكّل معرفتهم أي فارق، وكأنه من الطبيعي أن تتفوق فتاة وتحصل على أعلى الدرجات وهي تعيش في ظل ظروف ذلك البيت! -لقد كنت أتعمد تواجدي خارج البيت لأطول فترة ممكنة سواء كنت في عملي أم في مكتبة أو مسجد الجامعة لأستطيع المذاكرة في هدوء؛ لأن جو البيت لا يوفر لي ذلك ببساطة!-

قالوا "مبروك" هكذا باقتضاب مُبين، بينما دعاني أخي على حفلة عشاء فاخرة عندما استطاع الحصول على ثلاثة أيام إجازة ليقضيهم معي، لقد قام بدعوة كل رفيقاتي اللاتي تفرّقن بسببها لكن هناك خمسة فقط من لبّين الدعوة، ظل يعاتبهن وواجههن وقام بإيلامهنّ على رد فعلهن -رغم معرفته مسبقًا برفضي القاطع للوم-؛ فكل منهن كبيرة وناضجة بما يكفي لتتحكم في تصرفاتها! أو على الأقل كان عليهن مواجهتي ونُصحي لمنعي من العقوق!!

في النهاية؛ هُنّ لسن المُذنبات.. التمست لهنّ العذر، رغم أنني لو مكان إحداهن ورأيتها بعيني تعقّ والديها؛ لَما صدّقت عيني، أو على الأقل كنت التمست لها العذر؛ في النهاية: العقوق لم يحدث هكذا فجأة، غالبًا ما تكون هناك بداية ظالمة من قِبل الأهل! وعقوق الأبناء ما هو إلا رد فعل -رغم أنه ليس مبررًا بالتأكيد- لكنني حاولت التماس أكبر عدد من الأعذار؛ لكنني فشلت هذه المرة! يبدو أنني امتنعت عن السماح والغفران أبدًا ولاسيما أنهن لم يقدمن أي اعتذار.

****

انتهت إجازة أخي وعاد لعمله، فاستسلمت لنوبة اكتئاب كنت أقوم بتأجيلها لفترة طويلة، في الحقيقة كنت أود الانهيار من قبل تلك اللحظة لكن لم يكن لديَّ الوقت الكافي لذلك! فطلبت إجازة من عملي وانهرت!

ظللت أيام طويلة نائمة في فراشي، لا أدع النور يتسلل إلى الغرفة -لأني موصدة باب النافذة حتى بات هواء الغرفة غير متجدد-، امتنعت عن الطعام إلا من تمرتين حتى لا أموت، وامتنعت عن الكلام مع كل البشر عدا أخي -حتى لا يقلق عليّ ويقطع عمله ليأتيني- حتى صلاتي امتنعت عنها! شعرت حينها بالقهر من الجميع حتى من الله! وظللت أسأله: لماذا؟؟ لماذا تفعل معي هكذا؟ لماذا وضعتني في كل هذه الابتلاءات وأنت تعلم أنني غير قادرة على التحمل! لماذا وضعتني تحت سقف هذا البيت؟! ماذا لو كنت أنتمي لأسرة أخرى؛ بالتأكيد كانوا سيُقدّروني حق قدري ويبادلوني الحب والحنان وكنت سأشعر معهم بالأمان! ثُمَّ استرجعت واستغفرت وحوقلت وكبّرت وحمدت! أعلم يا ربي أنك لا تُكلّف نفسًا إلا وسعها، لكن حقًا لقد نفدت طاقة تحمّلي! حتى لا توجد أيّة إشارة تجعلني أستمر في هذا الصراع، إلى متى سأظل هكذا أصارع وحدي وإلى أين سينتهي دربي!

لقد مرت عشرة أيام ولم ينتبه أحد لحُزني! على الأقل لم يسألني أحدهم لماذا لم أذهب لعملي! حتى أختي كانت تنظر لي من يوم لآخر لكنها تصمت!

وذات يوم..

دخلت الحمام وأوصدت الباب جيدًا.. فقمت بحلاقة شعري بأكمله وأنا أبكي بلا صوت! جلست على الأرض وانهارت قوايّ، ارتعش جسدي كله تلك المرة وليست قدمي وحسب! حتى إنني لم أستطع حينها السيطرة عليه رغم تعب أعصابي جدًا لكنني لم أعد أدري كيف أكفّ عن تلك الرعشة، ظللت أقضم أظافري، وأعض شفتي السفلى حتى جرحتها دون قصد وتساقطت الدماء منها! فانتبهت وقمت لأستحم، استسلمت للبكاء تحت الماء، لا أدري كم مر من الوقت حينها، حتى انتبهت لدقات الباب العنيفة! يبدو أنهم دقوا لوقت طويل دون أن أنتبه! فحالتي لم تكن تسمح أبدًا. ظننتهم يدقون خوفًا عليّ لربما أصابني مكروه أو فقدت وعيي مثلًا. فوضعت المنشفة على رأسي وهممت بالخروج أخيرًا! فاستقبلني "هو" ثُمَّ مد يده ونزع المنشفة عن رأسي على سبيل السخرية والإهانة لتأخيري بالداخل؛ حتى صُعِقَ لرؤية رأسي الأصلع! -فقد تخلصت من شعري الطويل في المرحاض، ظللت أسكب فوقه الماء كثيرًا كي ينصرف!- فصرخ في وجهي ولطمني لما فعلته في نفسي وفيهم! فقد آذيت أعينهم وسأظل أؤذيها كلما نظروا إليَّ حتى تنبت شعيراتي وتُغطي صلعتي السمراء مجددًا!

قال أيضًا: أنني زدت من قبحي درجات! أي أنني كنت قبيحة في البداية بمثابة خمس درجات مثلًا؛ وعندئذ صرت قبيحة بنسبة عشرة من عشرة واكتملت درجة قبحي بجدارة!

فتجمّع أقاربي من كل حدب وصوب ليحضروا مشكلتي الجديدة!

لم يكلف أحدهم نفسه عناء السؤال عن سبب مصيبتي هذه! الجميع قام بنصب محكمة العقاب دونما أن ينظر لي أحدهم بعين الرحمة والاحتواء علّني في أمسّ الحاجة إليها الآن!! لم يخطر ببال أحدهم أنني حزينة جدًا ومكتئبة جدًا جدًا؟! هل هو طبيعي أن تقوم فتاة بالتفريط في زينتها والاستغناء عنها لسنوات -ولاسيما أن شعري كان طويلًا-؟! أليس منكم رجل رشيد؟!!

انصرفت من أمامهم وآثرتُ الصمت.. رغم أنهم ظلوا يصرخون في وجهي غضبًا وانهالوا عليَّ بأفظع الألفاظ كالعادة، حتى تعبوا وفقدوا الأمل في ردّي عليهم؛ فتوقّفوا أخيرًا!.

كنت أشجعهم على قسوتهم وظلمهم حتى أبرر كُرهي ومقتي لهم.. بغض النظر عن أنهم حقًا كانوا يستحقون البغضاء!.

هل كانوا يجرحون لأنهم مجروحون من غيرهم؟ هل كانوا يعاملوننا بتلك القسوة لأنهم عوملوا بها في صغرهم وتربّوا عليها مثلًا؟! حتى ولو كان هذا التفسير صحيحًا؛ ما ذنبنا نتوه في الحياة هكذا؟ ومن المفترض أننا في مرحلة الشباب ونعيش أجمل سنوات عمرنا وعندما سنشيب؛ سنَحِنُّ إلى تلك الأيام ونتمنى عودتها!!

لقد شعرت مرارًا بأنني طائرة في الهواء -ليس على سبيل الحرية والانطلاق بالطبع وإنما هو الشعور بالضياع وكأنه لا توجد جاذبية في الأرض- أنني

أقف على أرض ليست صلبة! كم مرة تمنيت معيشتي في بيت أحد أصدقائي؟! لولا الحياء وعزة النفس لكنت طلبت منهم أن أنضم إليهم وأتبرّأ من أهلي كما يتبرّؤون مني دومًا!

نهضت من فراشي أخيرًا وعدت لعملي مجددًا.. كنت أظن أنه بملازمتي لفراشي واستسلامي لحالة الانهيار تلك؛ ستجعلهم ينتبهون للحرائق السعيرة في فؤادي لعلهم يتساءلون عن الأسباب التي أوصلتني إلى هنا ونقوم بتبادل أطراف الحديث وأضع يدي على جراحي النازفة ونتكلم عنها معًا لعلها تبرأ! لعلنا عندما نتناقش ينصلح الحال ونكون أسرة مترابطة من الآن وصاعدًا ونحاول أن نغض الطرف عن الماضي ونبدأ من جديد لا بأس، كنت فعلًا مستعدة أن أغفر لهم ما مضى ونصلح معًا ما بقي وكأن خرابًا وتدميرًا نفسيًا لم يكن.. لكن هيهات!

واصلت السير في دربي كالمشلولة التي تجُرّ قدمها جرًا بالأخرى! كنت بحاجة صادقة إلى من يدفعني للأمام لأواصل السير في طريق سئمْتُه وأوشكت على كُرهه!

فقدت شغفي بالحياة وزهدت فيها.. كنت أقول في نفسي لماذا أعمل وأجتهد وأتعب وأنجح ولم يكن هناك مَن ينتظرني في نهاية السباق يدعمني ويُصفِّق لي ويبارك لي نجاحي ويفرح لي من قلبه؟!

على الرغم من أنه لا يوجد سوى أخي من تتوفر فيه هذه الصفات؛ إلا وكان ليس كافيًا بالنسبة لحالة اليأس التي كنت أمُرّ بها! كنت حينها بحاجة إلى

رياح قوية تقتلعني من أرضي البور وتنقلني لأرض خصبة أغرس جذوري بها لأنبت وريقاتي الخضراء وأنتفع من خيراتي لعلني أنفع الناس! لكن كيف؟!

هاتفت أخي وأخبرته بحقيقة مشاعري، على كل حال لست قادرة أن أخفي عنه أكثر!

فوجدته يقف أمامي في اليوم التالي.. قائلًا: هيا.. من أين سنبدأ وإلى أين ستكون وُجهتنا؟ أنا معك، وعانقني وبكينا حتى انهارت أعصابي وفقدت وعيي تمامًا! غالبًا كانت روحي مُعلّقة به وما إن رأته؛ إلا استسلمَت واطمأنَّت في حضرته. وعندما عاد إليَّ وعيي؛ وجدتني نائمة في المستشفى وهو يجلس بجانبي. يبدو أنني تماسكت بما فيه الكفاية ولقد انتظرت حضوره كي يتسنّى لي الانهيار بأمان!.

كان وحده! نظرت حولي أبحث عنهم لكن دون جدوى. ففهم ما جال بخاطري وقالي لي باسمًا: أولستُ بكافٍ؟! قلت: نعم! وفي نفسي قلت: لا لست كافيًا! لن يكن شخصًا واحدًا كافيًا أبدًا لإخراجي من الظلمات إلى النور وشفاء كل جروحي التي نُقشت في روحي على مدار الدهر! إنني بحاجة إلى معجزة إلهية تمسح على صدري ليبرأ قلبي وتنتظم دقاته وتطمئن روحي؛ علّني أهدأ وأستسلم لنوم هادئ منتظم لساعات طويلة متصلة لأول مرة منذ سنوات دونما فزع كل ساعة!

إنني مُصابة بابتلاء الخوف! أخاف من كل شيء ومن نفسي أيضًا! بتّ غير واثقة بي ولا بأحد سوى أخي حتى الآن! أصبحت أكره عمله لأنه يتركني وحدي من أجله، وأكره عملي لأنني مضطرة للاستمرار به كي أوفّر كل ما أحتاج إليه دون طلب المساعدة منهما -وحتى إذا طلبت لن أجد ردًا يُجدي ويُرضيني!-

يا الله لقد قلتَ "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ" ولكن حتى هذا الاستقرار ليس من حقي! فأنا لا أفقه توفيره وبدا لي أنه حلم بعيد وترف لا يمكنني الحصول عليه أبدًا! هذا يعني أنني إذا فقدت عملي -لا قدر الله- في أي وقت؛ سأفقد كل سُبُل حياتي، وإذا استمريت به وظللت أتعب فيه -رغم المتعة التي وجدتها- سأحصل على رواتب تجعلني مُستقلة ماديًا دون المكوث تحت رحمة أحدهم!

أنا لا أملك رفاهية اختيار راحتي والمكوث في بيت هادئ كأي فتاة في عمري- تعيش في كنف أبيها الذي يُعزّزها وأمها التي تُدللها!-

****

"هي" رغم ذهابها للتسوق كل ثلاثة أيام أو أكثر؛ إلا أنها بمجرد أن تلمحني مستعدة للخروج؛ إلا وتنهال عليَّ بالطلبات التي لابد أن أجلبها لها لضرورتها!

في البداية كنت أرضخ لطلباتها وأبتاع ما تريد، ثُمَّ بعد ذلك أصبحت أكظم غيظي لتفاهة الطلبات حقًا، ثُمَّ بعد ذلك عندما رأيت أنني أقوم بشراء أشياء موجودة بالفعل؛ امتنعت عن شرائي! بتُّ أتساءل عن السبب وراء ذلك؟! لماذا تقوم بتعطيلي كل يوم لدرجة أنني أصبحت أضبط منبهي قبل ميعادي الطبيعي بنصف ساعة كي أترك لها مُتّسعًا من الوقت للطلبات دون أن تقوم بتأخيري، وما إن تُملي عليّ بالطلبات وأستعد للاقتراب من الباب كي أذهب أخيرًا؛ إلا وتزيد من الطلبات مما يثير أعصابي حقًا ويجعل الدماء تغلي في عروقي! بغض النظر عن أنها لا تعطيني مقابلًا لطلباتها وأنني يوميًا أدفع أكثر ما أدفعه شهريًا! إلا أنني حقًا دُهِشت من فعلتها وظللت أبحث عن السبب لينتهي العجب! هل كثرة طلباتها تُعَدّ دليلًا قاطعًا على احتياجاتها النفسية لمشاعر مجهولة؟ وربما تقوم بتعويضها باحتياجات مادية؟! أم أنها تود أخذ أكبر قدر ممكن من راتبي كي لا يتسنى لي شراء كل ما أحتاج وأُمارس غروري عليهما كما تظن؟! أم أنها تريد تعطيلي واستفزازي وإثارة غضبي في صباح كل يوم كي لا أهنأ بيوم جميل أبدًا؟!

في الحقيقة وحتى هذه اللحظة لم أصل لإجابة منطقية لسؤالي وغالبًا لن أصل.

"هو" لا يتحدث معنا بهدوء حتى أثناء طلباته؛ دومًا يطلب بصيغة الآمر الناهي، بتسلُّط وفرض هيْمنته، لا يعانقنا بحنان، لا يعانقنا أصلًا سوى في الأعياد وهو يمد إلينا يده بالعيدية، عناق بارد لا يُسمن بالود والرحمة، ولا يغني من جوع عواطفنا وحاجتنا لملايين المشاعر التي تولد من الأحضان، مجرد أداء واجب نحن في غنى عنه! نحن لا نريد عيدية سنوية يا أبي، لسنا بحاجة لصدقة مادية أبدًا، فقط نريد كلمة طيبة، وابتسامة صادقة، معاملة طيبة آدمية! نحن فقراء المشاعر لا فقراء المادة!

و"هي" صارت تتبعه بمرور الوقت، يبدو أن الجفاء أول ما يُوَرَّث في العلاقات! بدلًا من أنها تعوّضنا ما لم يمنحنا إياه؛ صارت تمنعه بمنتهى الاقتناع دون أي انتباه أنهما بذلك يخلقان بداخلنا وحوشًا كاسرة دونما وعي!

لقد اختلفا في كل شيء، لكنهما اتفقا على قسوتهما علينا! على النقد الهدَّام طوال الوقت، الاعتراض على كل فكرة دون الخوض في تفاصيلها لربما يقتنعا بها إن استسلما للنقاش والانصات لنا! لكنهما اتخذا مبدأً لن يتخلّيَا عنه أبدًا؛ الاعتراض أولًا، ثُمَّ نقطة وانتهى الأمر.

"هو" طوال الوقت يحكي عن أمجاد وبطولات أبيه وأجداده وأعمامه وأخواله وأصدقائه، وبطولاته الخارقة في الماضي، يبدو أنه مصاب بـ"الميغالومانيا **Megalomania**" أو جنون العظمة، يتفاخر بكل ما عفى عليه الزمن

ربما لأنه لا يوجد في شخصيته في الحاضر ما يدعو للفخر! فخر وهمي على سبيل الهذيان، يتركز هذيانه على مشاعر العظمة ويعيش أفكارًا متسلطة تسبب له الهذيان ولكنها لا ترتبط بالهلوسات، يبدو كلامه منطقيًا لكنه فخر وهمي وليس له أي أساس من الصحة، وما هي سوى حالة يتأثر بها ليكسب ود وإبهار المحيطين به فيصنع لنفسه هالة من بريق العظمة يعيش بداخلها، لتتجه نحوه الأنظار طوال الوقت، فيجني منها السيادة والسُّلطة عليهم!

كانت "هي" تشتكي طوال الوقت أنه لا يسمعها ولا يجيد فنون الحوار، دائمًا يتكلم عن نفسه وأمجاده ويشكر في أخلاقه وصفاته، ولا يعطيها حقها في الحديث، ولما كانت تتزمجر من طبعه القاسي؛ كان يجيبها بالصمت العقابي، ويدخل في بؤرة الصمت حتى يقاطعها عن المعاملة عمومًا وليس الحوار وحسب لأكثر من ثلاثة شهور حتى يجعلها تعض أصابعها ندمًا وتتوب توبة نصوح وتعزم على ألا تعود، حتى أيقنَت؛ أن يتكلم عن نفسه حتى يمرضها بصداع مزمن أفضل بالتأكيد مائة مرة من إعراضه عنها شهور!

يتّبِع بالصمت العقابي أحد سُبُل الإخضاع النفسي التي يلجأ إليها بسبب شعوره بتضخم ذاته، فعند تعرضها للمساس بأبسط التصرفات؛ يلجأ متعمدًا للصمت المفاجئ دون تقديم أدنى مبرر لصمته الطويل.. فالصمت في هذه الحالة ما هو إلا وسيلة ضغط وإخضاع وليس مجرد تعبير عن مشاعره الشخصية، هو فقط عقاب متعمَّد؛ هدفه الوحيد إلحاق الأذى النفسي بها

من أجل الحصول على التموين النرجسي لا غير. كي يجبرها على تنفيذ طلباته الخفيّة؛ وهي التذلل وطلب الصفح والاعتذار المتواصل بسبب ودون سبب من أجل إشباع "الأنا" الخاصة به.

الصمت العقابي ما هو سوى رسالة إليها لإشعارها بعدم قيمتها وعدم أهميتها في حياته، هو فقط يطيع رغبته في إشعارها بشكل متواصل؛ بالذنب والتقصير والنقص! ليجعلها تفكّر ألف مرة قبل أن تتفوّه بكلمة أو تقوم بأي فعل تجعله يلجأ لعقابها بصمته وألا يتّبِع معها سياسة حرب الأعصاب!

ولا يتنازل عن موقفه ويقرر أن يرضى عنها ويغفر لها؛ سوى احتياجه الجسدي لها، يعني في نهاية المطاف هو يكافئ نفسه لا يكافئها هي، يقنعها أنه بذلك يُلبّي احتياجها الجسدي وأن لها في ذلك مصلحة كبيرة، وها هي كل المصالح تصب في نهره! لذلك كانت هي ترتعب من غضبه، فتلبي نداءه قبل النداء، وتطيع أوامره قبل أن يأمر وتنتهي عن كل نواهيه حتى لو لها مصلحة فيها، لكن مثلها ليس لها الحق أن تريد أو ترفض، ليس لها إلا أن تطيعه طاعة عمياء حتى ولو في الفراش وإلا فستلعنها الملائكة ويحل عليها غضب الإله امتدادًا لغضب الزوج!! فما كان لها من تنفيس غضبها منه؛ إلا فينا!!

"هي" ترفض سُنن الفطرة، النظافة الشخصية ونزع شعر الجسم! بل حرَّمَت ما أحل الله.

كم شعرت بالجهل عندما بلغت التاسعة عشر من عمري وقرأت مقالًا في فقه الطهارة، وكان مضمونه: كيفية الاغتسال بعد العادة الشهرية والاهتمام بنظافة الجسم من الشعر ولاسيما تحت الإبط والعانة مرة كل أسبوعين على الأقل.

فكرت مليًا لماذا لم تُحدّثني طيلة سنواتي الماضية عن هذا الموضوع الغاية في الأهمية! كانت عليها أن تُعلمني وتُفهمني منذ **6** سنوات منذ أن بلغت سن التمييز، لماذا تركتني وجبة شهية للفطريات الضارة وحكة الجلد دون حل للمشكلة! لماذا تركتني أصادف الحل وحدي!

وكان عُذرها أقبح من ذنبها؛ عندما طلبت منها التفرغ لنتحدث، وبعد سبع ساعات من ردها "انتظري انتظري" تفرَّغَت لي أخيرًا، فأغلقتُ باب غرفتي وقرأتُ على مسامعها المقال ذاته، لعلها تعلم أنه ليس مطلبي أنا ولكنها سُنة واجبة وعلينا جميعًا تطبيقها! وإذ بها تنظر لي بدهشة وتجيب بانفعال: "هل وصل بكِ عدم الحياء والأدب إلى هذه الدرجة؟! كيف تطلبين مني هذا الطلب الآن وأنت لم تبلغي العشرين من عمرك على الأقل! كيف تجرئين على فعل مثل هذا وأنا التي لم أجرؤ ولم أعلم عن هذا الموضوع شيئًا سوى عند زواجي بأبيكِ يا عديمة الحياء!"

أجبتها: "ليس ذنبي أن جدتي لم تفقه في الدين شيئًا عامة، وخاصة فقه الطهارة ولم تعلمكِ! أنا الآن فهمت وتعلمت ووجب عليَّ العمل بعد العلم

كأي شيء أعلمه وأعمل به لئلا يكن حُجّة عليَّ! ووجب عليكِ تعليمه لأختي"

وإذ بها تصفعني لوقاحتي وبجاحتي، قالت: "بئس العلم الذي تعلمتِ!"

وقلت في نفسي "ليتني لم أنقل لكِ هذا العلم"!

تركتها ولجأت للحمام كي أبكي بحرية دون أن تتهمني بعدم حيائي لأنني أبكي أمامها مثلًا! فلقد أصبح كل فعل أفعله وكل كلمة أنطقها؛ توضع تحت بند الحرام وعدم الأدب والحياء!

هناك أشخاص ليسوا بحاجة إلى مَن يرفع عنهم جهلهم ولا لمن يقطع من وقته وطاقته ولو لثوانٍ ليُعلّمهم ما تعلَّمَ، رغم أنه قيل في الحديث الشريف "خيركم مَن تعلم العلم وعلمه" لكن ليس لأولئك الذين فضّلوا الجهل على العلم! ولو أمطرت السماء فَهْمًا وإدراكًا؛ لوضعوا المظلات فوق رؤوسهم خشية إزالة جهلهم! لا أدري لماذا يخشون العلم أو على الأقل يعترفوا بالجهل؟! فالاعتراف بالجهل نصف العلم.

من تلك اللحظة قررتُ أن أتوقف تمامًا عن معرفتهم بأي خطوة أنا مُقبلة عليها في حياتي العامة أو الخاصة! لأنهم لن يدعموني على أية حال، بل سيقفون كالحجر الكبير أمامي يعرقل خطواتي ويُعثّرني عن هدفي ويُؤخّرني عن تحقيق حلمي ويبعثرني لأشلاء يستحيل جمعها مجددًا! سأدعهم يعرفون النتائج فقط إن لزم الأمر!

كانت أولى لقاءاتي بـ"الشقيقة" بدأت أشعر بصداع نصفي يزورني ويرحل على استحياء، لكنه بمرور الوقت صار ضيفًا ثقيلًا؛ زارني ولم يرحل حتى الآن! حتى أنني لم أعد قادرة على ممارسة نشاطاتي اليومية كما ينبغي، هناك جبل قابع فوق رأسي لا يود النزول! ولم تعد المُسكّنات هي الحل، لأنها لم تعد لها أي فائدة، كنت أنام وأستيقظ به حتى اعتدت وجوده الخبيث! ذهبت لطبيب أمراض باطنة فحوّلني لطبيب مخ وأعصاب؛ لكنّ الاثنين أجمعا على ضرورة عمل أشعة تصوير مقطعي ورنين مغناطيسي للتشخيص السليم ولمعرفة الأسباب ولاسيما أنني وصلت للمرحلة الثالثة وبدأت أشعر مع الصداع بخدر كوخز الإبر في خدّي الأيسر وذراعي وأعلى فخذي في الجانب ذاته، وفقدت تركيزي الذي بدأ بالتدريج لكنني لم أنتبه أن له علاقة بالشقيقة وعليَّ بدء العلاج فورًا لئلا تتطور حالتي! ولاسيما أن الصداع كان يزداد كلما قمت بعمل أي مجهود مهما كان ضعيفًا حتى لو سعلت دون قصد أو قمت من جلستي بحركة مفاجئة! ذلك بسبب تجاهلي للمرحلة الأولى والثانية واكتفيت بالمُسكّنات حتى بلا زيارة طبيب يطمئنني!

وبالطبع لم أُحِطهم علمًا بما يجري عن تدهور حالتي الصحية والنفسية، منذ فترة بتُ لا أخبرهم عني أي شيء ولاسيما مشاكلي ومرضي، ليس لعدم إثارة حزنهم عليَّ بالطبع ولكن لكي لا يشمتوا فيَّ ويسخروا مني ويستهزئوا بمُعاناتي!

ولاسيما أنني جسديًا؛ كنت مُعافاة تمامًا وليس هناك أي سبب عضوي للصداع غير أنها أسباب نفسية بحتة؛ فرط التفكير في كل صغيرة وكبيرة، وتركيزي المبالغ فيه في تفاصيل الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية! مما أدى إلى شعوري الدائم بالتوتر والقلق، ثُمَّ تحوّل أرقي إلى أرقٍ حاد! ثُمَّ بطبيعة الحال اللجوء إلى المُنبهات وشرب الكافيين -بكثرة بالتدريج حتى وصلت لمرحلة الإفراط والإدمان- كي أستطيع مواصلة يومي الطويل دون انهيار قبل نهاية النهار! وكانت هي ثاني مراحل الاكتئاب الحاد.

****

ولئن سألتَني ما هو أقسى شعور يمر به الإنسان؟ سأجيبك بلا تفكير "شعور الظلم حد القهر" أن تتحمل ما لا طاقة لك به، وتظل تحمل الهموم فوق ظهرك حتى تتقوّس عظامك ولا تستطيع القيام مجددًا -رغم أنك تُصارع نفسك والعالم كله كي تستقيم!- فلا تجد مَن يضع نفسه مكانك كي يشعر بما تشعر، علّه يُقدّرك ويتفهَّم أفكارك، أو على الأقل يُعينك على تلك القسوة غير المُبرَّرة وينصرك! أن تُوضَع في كَفّة ميزان الحياة الظالمة، وكل العالمين في الكفّة الأخرى، لا تجد مَن يُنصفك ويُثقل ميزانك؛ فترجح كفّة الأغلبية وإن كان ظلمًا وافتراءً! كيف تصرخ وحدك في غابة الحياة الظلماء! مَن يسمعك؟ وإن سُمِعت؛ لا أحد يُنصت إليك! لا أحد يراك وإن كنتَ مُميزًا، لأنك نقي شفاف أكثر من اللازم! ولذلك سهلُ الدعس والسحق والقهر! شعور حارق كماء النار المسكوبة على قلبك! كنَثْر الملح فوق جروحك، ولو بكيتَ ألف عام من شدة الألم؛ فلن يتغير شيء سوى أنك ستفقد بصرك! لكن بصيرتك حاضرة ونشطة جدًا؛ وهنا تكمن الكارثة! لسانك الذي لم يتوقف لحظة عن الكلام؛ الآن الآن قد أصابه الخرس فجأة ولُجم من فرط التهم الموجهة إليك! ولازلتَ وحدك.. الكل يخاف أن يُطال بيد البطش العاتية، وكلٌّ يخشى على نفسه ويُفكر في مصلحته وحسب.. إلا من رحم ربي! ما دمت ليّنًا مطّاطًا؛ فقد وجب عليك تلقي الصدمات ما دمت حيًا! ما دُمتَ تنازلتَ مرارًا وتحمّلت حَمل العشرات من الضغوط؛ فبإمكانك حمل المئات بلا رحمة وأدنى شعور بالذنب!! والذي يزيد الطين بلّة؛

أن يُخبرك ظالمك بأن كَيْله قد طفح! ولقد تَحَمّلَك أكثر من اللازم! في غضون دقيقة؛ استطاع بسهولة قلب طاولة الحديث فوق رأسك! لتجد نفسك في نهاية الأمر؛ أنك أنت الظالم الوحيد وما هو سوى ناجٍ بأعجوبة من جبروتك! لقد لعب دور الضحية بإتقان رهيب لدرجة أنك للحظات؛ صدّقتَه وفقدت الثقة في نفسك! نعم أنت الظالم.. لكنك لم تظلم سوى نفسك! لقد ظلمت نفسك بتحمُّلك وتنازلك منذ المرة الأولى! لكن عزاءك الوحيد أن الله الحكم العدل الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله مُحرّمًا بين العباد؛ يسمع ويرى.. ليس مُهمًا مَن يتجبّر ويضحك الآن؛ وإنما العبرة بالخاتمة.. يوم الحساب! والله حسبك ونعم الوكيل.

سقطت مغشيًا عليّ ذات يوم في العمل، حاولوا إفاقتي وفشلوا، بعد عشر دقائق، قاموا بالاتصال بأهلي ونقلوني جميعهم بسيارة أجرة إلى المستشفى، كانوا قلقين جدًا ولاسيما أنّ يديّ وقدميّ تشنّجوا وبدأ جسمي برعشة وأخذ أنيني يرتفع حتى صار صراخ! في قسم الطوارئ عملوا اللازم، بدأت باستعادة وعيي بالتدريج، وجدته "هو" ممسكًا بيدي المغروس فيها إبرة المحلول، وبمجرد انتباهه بإفاقتي؛ تركني وذهب! فتحت عينيّ على وسعهما والتفتّ يمينًا ويسارًا لأتأكد من أن الغرفة خالية فعلًا! هل كنت أحلم بوجوده من تأثير المهدئ؟! ثُمَّ دخلت أختي وقفت بجانبي ونظرت لي ولم تتفوّه بكلمة، ثُمَّ بعد دقائق انصرفت!

ثم دخل الطبيب وأخذ يحادثني ويسألني أسئلة مختلفة ليقرر حالتي، ثُمَّ سألني ماذا حدث قُبيل تعبك؟ أجبته: لا شيء كنت أقوم بعملي ككل يوم ولم تطرأ عليّ أيّة بوادر غير أنني شعرت بهبوط وغثيان وتنحّيت جانبًا وجلست على أقرب كرسي في المتجر، وتوسّدتُ ذراعي الأيمن بعدما قمت بوضعه فوق المكتب، ثُمَّ لم أشعر بشيء إلا وأنا هنا.

سألته مَن معي غير أختي؟ أجابني: أصدقاؤك في عملك نقلوكِ وفي انتظارك في الخارج مع أبيك وأمك! سألته: هل منعتوهم من زيارتي؟ أجابني: نعم منذ قليل، أما الآن فلا.. حالتك الآن مستقرة ولقد تعدّيتِ مرحلة الخطر!

قلت: أي خطر؟

قال: هل نفسيتك على ما يرام؟ هل قام شخص بمضايقتك هذه الأيام؟

قلت: لا! كل شيء طبيعي، الذي يحدث اليوم هو نفسه الذي حدث بالأمس هو نفسه الذي سيحدث غدًا، أنا أعيش بروتين هادئ نوعًا ما. قال: ربما هذا سبب الانهيار العصبي الذي أصابك اليوم! أنك تكررين نمط حياتك بدقة لهذا الحد ولا تفعلين شيئًا جديدًا كل يوم، وانتبهي أيضًا من التراكمات؛ أن تحزني لسبب ما، ثُمَّ تدسيه بعيدًا في قلبك ولا تخبري به أحدًا، ثُمَّ تحزني مجددًا ولا تخبري أحدًا، ثُمَّ تحزني وتعملي وتدرسي وكأن حزنًا لم يكن، ثُمَّ تنفجري من هَوْل التراكمات كما حدث اليوم! هل أنت منضمة لفريق رياضي؟ قلت: كنت منضمة لفريق لعبة السلة منذ ثلاثة شهور لكنني توقفت لأسباب عائلية.

قال: وما البديل للسلة؟ لابد كل شيء تتوقفي عنه أن تخلقي له بديلًا إيجابيًا يملأ فراغه بدلًا من أن يُمْلأ الفراغ ببديل سلبي كَوَحش التفكير المفرط!

قلت: هل أنا مرضت وفقدت وعيي وجئت إلى هنا بسبب التراكمات والتفكير يا دكتور؟

قال بثقة: نعم! أنتِ صحتك الجسدية على ما يرام، مجرد إرهاق عام لا أكثر، لقد خضعتِ للكشف منذ دخولك لهنا وقمتُ بعمل تحاليل معينة لأعرف سبب تشنج يديك وقدميك، وانخفاض مستوى السكر في دمك ولاحظت اضطراب في تركيز الماغنسيوم والبوتاسيوم وفقر دم عارض لذلك تم انخفاض نسبة الأكسجين في الدم وهذا ما جعلك تشعرين بخدر وتنميل في أطرافك الذي أدى إلى التشنجات! كلها أسباب نفسية بحتة على ما يبدو ولاسيما أن السكر التراكمي نسبته معقولة جدًا، لذلك أقترح عليكِ مراجعة طبيب نفسي.

خرج الطبيب ودخل أصدقائي، لقد رأيت اللهفة والخوف في أعينهم! اطمَأَنوا عليّ وأعطاني مديري إجازة للراحة لحين استعادة صحتي، مزحوا معي لإضحاكي وتغيير مزاجي، ثُمَّ تمنّوا لي الصحة والعافية وانصرفوا. ظلت عيناي معلقتين بالباب، منتظرة دخول أهلي! ثُمَّ بعد بضع دقائق دخلوا أخيرًا..

"حمدًا لله على سلامتك" فقط.. وقالوها باقتضاب كأنهم أتوا مضطرين!

فأجبتهم بكسرة خاطر، لم أكن منتظرة منهم ذلك، على الأقل لم أرَ في أعينهم الخوف واللهفة اللتين رأيتهما في عيون أصدقائي الذين ليسوا من دمي!

ـ سألتهم: ماذا قال الطبيب؟

ـ قال "هو": مجرد إرهاق.

ـ قلت في نفسي: قال فقط إرهاق؟ تريدون أن تسقطوا عن أنفسكم ذنب الحالة التي وصلت إليها بسببكم؟ حسنًا..

تم انتهاء المحلول المغذي لأوردتي وكيس الدم الذي نقلوه لي، فنادوا الممرضة لتنزعهما من يدي، ثُمَّ انصرفنا إلى البيت..

بمجرد دخولي غرفتي.. أخيرًا خرجت أختي عن صمتها: لقد فاتك نصف عمرك، أنتِ لم تري كيف كانت أمك وأبوك قلقين عليكِ، وخصوصًا أباكِ! لقد مات رعبًا عليكِ، هو بجلالة قدره بكى خوفًا عليكِ، تخيلي؟! كنتِ في حالة يُرثى لها، وجهك كان شاحبًا كالأموات، وشفتاكِ بيضاء، لقد هربت الدموية من جسدك فجأة، كنتِ تأنّين بصوت منخفض وكأنك تقولين شيئًا، كأنك كنتِ حزينة لسببٍ ما، ثُمَّ بدأت شهقاتك بالارتفاع، وشرعت يداك وقدماك بالتشنج، لقد أخفتني يا بنت!

ابتسمت لها وقلت: الحمد لله انتهى الأمر على خير، ثم شردتُ قليلًا..

ما فائدة خوفهما عليَّ دون أن يظهرا لي هذه المشاعر التي حتمًا ستُغيّر مزاجي وحالتي النفسية للأفضل **360** درجة! يخافان ويبكيان رعبًا لمجرد احتمالية فقدي في أي وقت، لكن على صعيد آخر؛ يبخلان بالابتسامة وعناقي أو التربيت على كتفي على الأقل ليشعراني بصدق محبتهما، لقد جاءت الفرصة الفعلية كي يثبتان لي بها أنهما حقًا يخافان عليّ ويُحبّاني؛ لكنهما لم يستغلّا الفرصة، فمتى يثبتان لي؟ لا قولًا ولا فعلًا، فمتى سأشعر بحبهما يا ترى؟!! يُهملاني طوال حياتي ويقسيان عليَّ، لكنهما يبكيان فور مماتي، ثُمَّ سينسياني كما نسياني! بإمكاني الآن تخيُّل المشهد عندما تصعد روحي لبارئها..

****

بدأت بالتدريج أقلل خروجي للدورات التدريبية وأكتفي بالدورات الإلكترونية كي أوفر جهدي وألا أرهق ذاتي أكثر، ثُمَّ تسرَّب الكسل إلى روحي وبتُّ أتكاسل عن الحضور الإلكتروني أيضًا، ثُمَّ تكاسل عن ممارسة هواياتي من رسم وأشغال الكروشيه وسماع المحاضرات التثقيفية وندوات الشعر، حتى وصل بي المطاف إلى التحوّل الجذري من إنسانة نشيطة مثقفة مرحة متفائلة تنبض بالحيوية؛ إلى كائن حجري ملتصق بالأرض! صِرت كالثور المربوط بالساقية، يدور حول نفسه بلا هدف حقيقي، يأكل ويشرب ليعمل، ثُمَّ يهوى أرضًا من فرط التعب ويغط في ثبات عميق، لينهض في اليوم التالي ويكرر ما فعله بالأمس، ليس له قيمة حالية أو هدف مستقبلي سوى جمع المال، وبالتالي تخلَّى عنِّي زملائي في الدورات كي لا تنتقل إليهم عدوى تكاسلي وهذا من حقهم. لكن النتيجة أنني عدت وحيدة مجددًا، لا أحد قادر على تقبّلك بفشلك وإحباطاتك، لكن الكل على أتم الاستعداد أن يتقبلك وأنت مفعم بالطاقة وقادر على الإنتاج عمومًا!

ظللت شهور على هذه الحال؛ لاحظت أن هذا ما كان يريده أبواي بالضبط؛ الآن أنا أسير وفقًا لرؤيتهما! أدركت حينها أن النجاح الحقيقي؛ هو عدم الاكتراث لكلامهما وقناعتهما وأن أسير في عكس اتجاههما بخطى ثابتة وألا ألتفت للخلف أبدًا حتى لا يؤثّران عليَّ بتفكيرهما السلبي المحدود. لكن يبدو أنني أدركت ذلك بعد فوت الأوان.

في هذه الأحيان كان أخي فلذة كبدي يجهز أوراق التحاقه بالتجنيد، ورغم انشغاله باختباراته النهائية في دراسته ومواظبته على عمله قدر الإمكان؛ كان يتتبع أخباري ويأتي للبيت أو يمر عليّ في عملي من فترة لأخرى لقضاء بعض الوقت معي لئلا يُشعرني بأنه انشطر عني أو أن هناك شيئًا أهم مني لينشغل به. كنت لم أخبره بفترة مرضي لئلا أثير قلقه وفزعه أو لكي لا أعطّله عن شيء، لكنه رأى آثار وخز الإبر في يدي وشحوب وجهي، فظل يلوم نفسه بالانشغال عني لهذا الحد، لكنني أقسمت له مائة مرة أنني أصبحت بخير ولا داعي للقلق، وصرت أجاهد لأبدو على ما يرام جسديًا ونفسيًا وأضع مساحيق التجميل على وجهي لأخفي شحوبي ولأنقذ ما يمكنني إنقاذه في نضارة بشرتي كي يوقن أنني فعلًا بخير! ولكي يذهب وهو مطمئن بنسبة كبيرة، كنت أخفي عنه معظم الأخبار الحزينة ولا أحكي له سوى السعيدة قدر المستطاع، حتى وإن فضفضت بخبر بائس؛ أمرّ عليه مرور الكرام دون الخوض في التفاصيل كي لا أزعجه أو أشعره بعجزه؛ عندما يود مساعدتي وحمايتي منهما لكنه لا يستطيع! كيف يحمي بنتًا من والديها يا ترى؟! ولاسيما أنه حاول أن يستأجر بيتًا لأسكن فيه وحدي، وتراجع فورًا لأنه خاف أن يحدث لي أي مكروه لاقدر الله وأنا وحيدة، أو أن يتهكم الجيران لجلوسي بمفردي ويؤذونني مثلًا حتى لو بالكلام القبيح على سُمعتي، وفي النهاية أصلًا لن يحصل على الموافقة منهما أبدًا على كل حال!

فقرر تأجيل الفكرة حتى تنتهي فترة تجنيده ونسكن معًا. كان هذا هو الأمل الوحيد الذي أنتظره وأحيا من أجله.

****

مشكلته الأساسية أنه تارة يعاملني معاملة الكبار الحكماء الناضجين وأخرى معاملة الصغار البلهاء التافهين! -لكنه على كل حال مقتنع أنني لا أفهم شيئًا وأن اختياراتي كلها خاطئة وتفكيري عقيم- المهم أنه يقرر على حسب المصلحة المطلوبة مني أو الأمر الذي يتوجب عليّ فعله؛ فتختلف آرائه وفقًا لمعاييره التي تتمطّى بسهولة حسب هواه، فأجده تارة يقرر الشيء، وأخرى يقرر نقيضه.. ولا ينصت بالطبع لأي رأي سواه ولاسيما إن عقدنا مقارنة بين كلامه وكلامه أيضًا لنجد كمّ الفروق الشاسعة بينهما. ذكرّني بـ(بروكرست) كنت قرأت عنه ذات يوم، وهو شخص من المثيلوجيا اليونانية، حيث كان حدادًا وقاطع طريق من أتيكا، يقع بيته في جبل كوريدالوس الموجود على الطريق بين أثينا وإلفسينا. حيث كان يملك سريرًا حديديًا، يقوم بدعوة أي مسافر مار ليحسن ضيافته ويدعوه إلى النوم في هذا السرير، وكان مهووسًا بأهمية أن يناسب طول الضيف السرير، فإذا كان الضيف أطول من السرير؛ قام بقطع أرجله ليتناسب مع السرير، وإذا كان أقصر من السرير؛ مط جسم الضحية حتى تتكسر مفاصله حتى يساوي جسمه السرير بالضبط. ولم يكن لأحد أن ينجو من هذا المصير المرعب! واستمر بجرائمه المروعة حتى ألقى القبض عليه شخص يُدعى ثيسيوس وأخضعه من باب العدل؛ لنفس ما خضع له ضحاياه، حيث أنامه على سريره وقطع رأسه ليتلاءم مع السرير. لذلك صار لفظ "البروكرستية" يطلق على "فرض القوالب" على الأشياء (الأشخاص أو الأفكار) لقلب الحقائق أو

تشويه المعطيات لكي تتناسب مع قناعاته بالإجبار؛ تمامًا مثلما يفعل "هو" طوال عمره!

هناك حلقة مفقودة بين الأجيال؛ بين الآباء والأبناء، الآباء بخبراتهم يُخيّل لهم أنهم في غنى عن ذكاء أبنائهم، والأبناء بذكائهم يستغنون عن خبرة آبائهم، وكل من الطرفين يقسم أنه على حق دون أن ينصت للآخر! والحقيقة أن الاثنين مكملين لبعضهما كوجْهين لعُملة واحدة لا تستقيم الحياة بكل منهما على حدة! وإن كنت سأُقدِّم نصيحة للآباء غير والديّ؛ سأنصحهم بأن ينصتوا لأبنائهم وألا يُحقِّروا من شأنهم وألا يسخروا من ذكائهم ويستهزئوا بقناعاتهم وأفكارهم وأن يستجيبوا لبعض مطالبهم إلى أن يثبتوا بالنتائج؛ حُسن أو سوء تصرفاتهم، فالتجربة ههنا ستكون هي الفيصل، لا للمعارضة وقمع الرأي دون تجارب أو على سبيل الإجبار! لم تعد التربية بهذه الطريقة تجدي نفعًا أبدًا وإن كانت تنفع منذ آلاف السنوات؛ ستبوء بفشل ذريع الآن! العالم في تطور كل يوم، فمن الرجعية والجهل؛ الثبات على نفس النمط طوال الدهر وغلق الآذان عن كل ما هو مغاير للقوانين التي ما أنزل الله بها من سلطان!!

****

"هي" تتضاعف عصبيتها يومًا بعد يوم، كانت لا تنصت لحديثنا باهتمام، فأصبحت تنفجر غضبًا لمجرد أن تسمع أصوات ضحكاتنا أو نقاشنا معًا، وحتى إن كنا بعيدًا عنها تمامًا أو حديثي مع أخي أو أحد رفيقاتي في الهاتف، غضب غير مبرر أبدًا! لا هي تسمح لنا بالحديث معها ولا بالحديث مع بعضنا، بتُّ أخشى أن تغضب عليَّ عندما أفكر وأتحدث مع نفسي في خاطري!! فكنت كلما تجول بخاطري فكرة وأسرح معها؛ أنظر لوجهها على الفور لأتأكد من أنها لا تسمعني وأنني لا أتفوّه بكلمة فعلًا! حتى لا يشب حريق نحن جميعًا في غنى عنه!

فقط كنت أود معرفة السبب الحقيقي لعصبيتها؟! كنت أظن أنه يعود لبُعدها عن أهلها، لأنها ونحن صغار كانت تزورهم كل شهر، ثُمَّ كل ثلاث شهور، ثُمَّ بدأت الفجوة بين الشهور تتفاقم حتى وصلت للسنة؛ فصارت تزورهم أسبوعين في نهاية كل عام! قلت بالتأكيد هذا هو السبب، ثُمَّ تراجعتُ عندما وجدتها تعود من الزيارة بنفس الحالة التي ذهبَت بها! ثُمَّ قلت بالتأكيد يعود السبب إلى الضغوط التي تحملها فوق عاتقها؛ لكن لا أدري لماذا تستمر في حملها وهي قادرة على الخلاص منها في أي وقت، فخدمة أهل الزوج فضل من الزوجة لا فرض عليها على كل حال! وطبيعة الحال سنها يكبر، والذي كان يجدي منذ عشر سنوات؛ أصبح بالتأكيد لا يجدي اليوم وعلى الجميع تفهُّم ذلك دون حرج! ثُمَّ قلت بالتأكيد سن اليأس عليه العامل الأكبر؛ ففيه تشعر المرأة عادة بأنها باتت غير مرغوب فيها؛

نسبةً لملامحها التي كستها التجاعيد الخفيفة التي تظهر بوضوح بالتدريج، وقلة الثقة في نفسها ولاسيما بعد انقطاع الحيض عنها؛ نسبةً لقلة خصوبتها ومن ثَمَّ تشعر وكأن أنوثتها تتهدد بالخطر، بالإضافة إلى أن توقف الطمث؛ يجعلها تشعر بالاكتئاب الشديد والعصبيَّة المفرطة والقلق حتى يصل الأمر للأرَق وبالتالي؛ ضعف التركيز والصُّدَاع والشعور بالإرهاق معظم الوقت، ثُمَّ انخفاض نسبة هرمون الإستروجين المسؤول عن السيطرة على الكوليسترول في جسمها، ويحافظ على صحة عظامها -وبالتالي أغلب النساء يصَبن بهشاشة العظام في هذه المرحلة العمرية- ، وهو المسؤول عن السيطرة على شعور التوتر والمزاجية ونوبات الغضب -وبالتالي عندما ينخفض هذا الهرمون؛ يزداد توترها وغضبها ومزاجيتها، فتارة نجدها تشعر بالرضا وفي اللحظة نفسها تشعر بالسخط وهكذا دون أي سبب منطقي!- كنت تارة أغضب منها وتارة ألتمس لها الأعذار، لكنني بتُّ مؤخرًا أغضب وحسب، لأنني منذ ولادتي وحتى هذه اللحظة؛ لم يلتمس لي أحدهما أي عذر، فأحببت فكرة انتقامي بمعاملتهما بالمثل على الأقل! لكنني اكتشفتُ أنني في النهاية كنت أغضب وأنتقم لنفسي في نفسي!

بدأت أهمل عملي بالتدريج، أذهب متأخرة، بعدما كنت أستيقظ بنشاط وحيوية وأرتدي ملابسي بحماس وأجري لأكون أول الحضور ونتناول معًا وجبة الإفطار كعائلة، ومن ثَمَّ ينغمس كل منا في عمله حتى وقت الراحة نكرر تجمُّعنا لنتناول الغداء ونتبادل النقاشات الممتعة والضحكات العالية

والمزحات الشقية، ثُمَّ يشرب كل منا مشروبه المفضّل قبلما ننغمس مجددًا في العمل حتى موعد الانصراف، فبدأت أشعر بتثاقل خطواتي وكسل مدهش بحق، مرت سنوات وأنا أعمل بحُب وهمّة، فلماذا أشعر بلامبالاة هكذا؟ هل العمل هو السبب أم هي أسبابي العائلية لكنها أثّرت على عملي أيضًا؟! أصبحت مشوشة الأفكار جُلّ الوقت، منعدمة التركيز ولقد لاحظ زملائي هذا الشيء وقاموا بتنبيهي أكثر من مرة، حتى قمت بتبديل حقنتين لكلب وقطة مرضى، فأعطيت إبرة الكلب للقطة والعكس! لم أنتبه إلا بتطور حالة القطة للأسوأ، تقيّأت ثُمَّ أصيبت بالإسهال، ثُمَّ حاولتُ علاجها بمحلول جفاف لأنها رفضت الطعام والشراب تمامًا، ثُمَّ بحقنة مضادة، ثُمَّ اتصلت بالبيطري وجاء لإسعافها فوجدني قمت باللازم ورغم ذلك فشلنا في إنقاذها وماتت بعد ساعات! لم يعد لديّ وقت للبكاء؛ فذهبنا لإنقاذ الكلب ولله الحمد كانت مناعته أقوى منها واستجاب للحقن المضادة. بعدما اطمأن قلبي لاستقرار حالته؛ استسلمت لنوبة البكاء التي كنت أقوم بتأجيلها! لقد كنت السبب في وفاة قطة وتسمم كلب!! لقد عانت المسكينة ساعات قبل أن تصعد روحها البريئة لبارئها، عانت وتعذّبت بسببي! لقد كانت مريضة أصلًا وكانت أوشكت على التعافي لكنني طوّرت من حالتها للأسوأ فلم تتحمل، ماتت بسبب تقصيري وعدم تركيزي!! ظللت أبكي وأجلد ذاتي وأحمّل نفسي المسؤولية كاملة، فلولا فعلتي؛ ما ماتت، كانت قبل فعلتي تستجيب للعلاج ببطء لكنها كانت تتحسّن على كل حال!! فقررت

بدون نقاش مع أحدهم؛ ترك العمل فورًا! في ظل تدخلات زملائي ورئيسي في العمل بأنها كانت مريضة ومتوقع وفاتها في أي وقت وبالتالي لم أكن أنا السبب الرئيس لفقدها حياتها وكلام من هذا القبيل، إلا أنني أغلقت أذنيّ وأيقنت تمامًا أنني السبب الوحيد ولابد أن أعاقب نفسي بترك المكان الذي عذبتها فيه لأنني بكل الأحوال لن أطيق الجلوس في مكان يذكّرني بخيبتي وذنبي كل حين، ولكي لا أتسبب في عذاب حيوان آخر لأي سبب! عدت مجددًا لعدم استحقاقي لمزايا العمل في مقابل أول خطأ ارتكبته فيه منذ سنوات؛ وهل هذا كأي خطأ؟! أنا التي كانوا يسمونها "ملاك الرحمة" لفرط حزني على كل حيوان يتم بيعه لزبون ما، كنت ضد الإتجار بالحيوانات أصلًا وأعلم أن فيه حرمانية لأنها روح حرة خلقها الله فليس لأحد الحق أن يبيعها ويشتريها ولاسيما إن كان يظن أن الحيوان مجرد لعبة مُسلّية له ولأطفاله؛ حينها أنهي البيعة فورًا وهذا ما كان يسبب لي مشكلة كبيرة مع مديري، لكنها أرواح! إن كنت قادرًا على رعايتها والاهتمام بها كأطفالك تمامًا ولاسيما علاجها وقت مرضها؛ فاعمل على تربيتها، وما دون ذلك فلن أفرّط في حيوان من مملكتي الرحيمة لأهوي به في مصير مجهول يؤديه إلى الجحيم! لقد عانوا من مبالغتي في الاهتمام بالحيوانات وحرصي على إعطائهم التطعيمات وأدوية الوقاية من الأمراض في مواعيدها التي قمت بضبط منبهي لها! وعندما أشعر أن أحدهم ليس على ما يرام كنت أقيم بجانبه حتى يتحسن ويعتمد على نفسه في طعامه وشرابه، ربما هذا الخطأ لو كان صدر

من أي شخص غيري؛ كنت شعرتُ أنه تقصير عادي، لكنه صدر من ملاك الرحمة! وتحولتُ بعدها لملاك العذاب!! لذلك أنا لا أستحق المكوث ثانية واحدة في هذا الكيان العظيم وقررتُ حرماني منه أبدًا!.

حينها خطرت ببالي فكرة إيذاء نفسي للانتقام مني فيَّ؛ ولأول مرة لن أنتقم من أحدهم في نفسي!

فور دخولي للبيت، تأكدت من أن الجميع مشغول، ولاسيما "هي" كانت جالسة مع إحدى جاراتنا تشكو لها مني، بينما كانت الجارة تقارن بيني وبين ابنتها التي في مثل سني؛ وتُثقل ميزانها بتعدد مزاياها حتى فازت بالسباق بجدارة ورجحت كفة ابنتها وخفّت موازيني بنجاح!! وأنا و"هي" وجارتنا نفسها؛ نعلم جميعًا أنها كاذبة! لكن نحن نحب الثرثرة والغيبة والنميمة بلا هدف.

تجاهلت ما سمعت، فدخلت الحمام وقمت بكسر زجاجة وبدأت أرسم ندوبًا على ذراعي الأيسر! كنت أتألم جدًا، وشرعت في البكاء بهيستيريا، ثُمَّ ظللت أغرس الزجاجة الحادة في جلدي أكثر حتى يصير الجرح غائرًا ويستحيل تعافيه! علّني أتطهر من ذنب القطة يومًا ما! وربما كنت أتطهر من جميع ذنوبي وتقصيري الوهمي في حق أهلي طوال حياتي! أربعة عشر جرحًا قصيرًا بالتوازي من أعلى ذراعي وحتى معصمي، ظللت أنزف تحت الماء وأنا أستحم وأبكي غير مبالية بالذي فعلته في نفسي. لم أكن أدري أن هذه الندوب ستظل منقوشة من الآن وإلى الأبد! لقد كانت الفكرة

المسيطرة عليّ حينها؛ أنني أستحق هذا العذاب! فوجدته قليلًا جدًا مقارنة مثلًا بالعذاب الذي شعرت به القطة قُبيل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بسببي!

قمت بلفّ ذراعي بالمنشفة المبللة لعل النزيف يتوقف قبلما يلحظ أحدهم ويُجلسني على كرسي الاتهام وأنا آخر ما أحتاجه الآن؛ أن يشعرني أحدهم بالذنب لأنني أظن أنني كفّيت ووفّيت!

لقد حكمتُ على نفسي بارتداء ملابس طويلة الأكمام أبد الدهر! كي لا يرى أحدهم آثار ندوبي.

لم يلحظ أحدهم تركي للعمل إلا عند استلام أول فاتورة كان عليّ دفعها، وعندما علموا؛ قامت ثورة ولم تهدأ؛ لأنني فتاة عاقة أنانية لا أفكر سوى بنفسي وغير مسؤولة!

قالت "هي" أثناء توبيخها لي وانفجارها غضبًا في وجهي: دومًا أنتِ تسيرين بمبدأ "أنا ومن بعدي الطوفان"! تفعلين ما يروق لكِ في أي وقت دون التفكير بعواقب الموضوع!

ثم قال "هو": بالتأكيد أمّنتِ نفسك وادخرتِ مبلغًا كبيرًا -كعادتك- لتلبي احتياجاتك، وفكرة تركك للعمل في بالك منذ شهور، بالتأكيد لم تنامي وتستيقظي لتقرري فجأة ترك عملك، ونحن آخر من يعلم في هذا البيت!

وظلا يصرخان لساعة وأكثر..

لم أخبرهما بالسبب الحقيقي وراء تركي للعمل الوحيد الذي تمنّيت الالتحاق به وأنا لازلت أدرس في الابتدائية! بالتأكيد كان قرارًا صعبًا جدًا،

ولم أفرّط به بالسهولة التي في مخيلتهما الآن! لن يتفهّما شعوري بالذنب، بالنسبة لهما: بهيمة وماتت! وانتهى الموضوع. حياتنا لن تتوقف على موت بهيمة يعني!! حتى الإنسان عندما يموت لن تتوقف حياة أهله، ما بالك بالبهيمة! لو كنت أخبرتهما بالسبب؛ بالطبع لكنت سمعت من السخرية ما يمتلئ به بطني حد القيء! ولم أكن أدخر شيئًا لأنني ببساطة لم أكن أنوي الترك أصلًا! لم أخبرهما لأنهما لم يسألا ولم يهمهما الأسباب بقدر أهمية النتيجة! فقررت الصمت كالعادة لأنه لا جدوى من الكلام على كل حال.

استسلمت لنوبة اكتئاب جديدة، لم يكن سببها الوحيد؛ العمل! لكن كما يقال: المصائب لا تأتي فرادى! وبما أنني كنت أقضي ثلاثة أرباع يومي خارج البيت، أصبحت الآن أقضيه كاملًا وجهي في وجوههم وهذا لو تعلمون عظيم! زاد الاحتكاك والتعامل فبالتالي زادت المعارك وبتُّ أنهار وأبكي كثيرًا حتى لو مناوشات عادية! لكنني صدقًا صِرتُ هشة ضعيفة ليس لديّ طاقة تحمل لأتفه الأشياء، ولاسيما أنهما يُحمّلاني كل لحظة ذنب فراغ الثلاجة ودولاب الخزين الشهري!

يُقال: "رُبَّ ضارة نافعة".. عندما قلّ دخلنا؛ بدأ "هو" يعتذر من أقاربنا لزياراتنا في أي وقت ولاسيما أنهم لا يقومون بالاستئذان قبل الدق على بابنا كما عوَّدهم على ذلك!

كان يسدد الفواتير من المال الذي يرسله أهلها كل شهر، ونشتري طلبات البيت من معاشه، وبالتالي صرنا فقراء جدًا، بالكاد نشبع! غير مسموح

بدخول الفواكه والعصائر والمقرمشات واللحوم والأسماك ومثل كل هذه الرفاهيات بيتنا الدافئ! على كل حال كان دخول هذه المنتجات للضيوف وحسب، يعني لم نكن المنتفعين بها أصلًا سوى الذي كنت أجلبه أنا وأخي سرًا بعض الوقت ونتناوله مع أختي بسرعة قبلما يفتضح أمرنا التافه!

فطلب مساعدة من ابنه الكبير لكنه رفض كعادته، ثُمَّ انتظر إجازة أخي من جيشه ليخبره بالحال الذي وصلنا إليه وكم هو بات يشعر بالعجز، ظل يتحدث ليثير عواطفه ورغم ذلك كان أخي لا ينتظر إثارة عواطفه بهذا الشكل ليساعده، بمجرد أن علم خبر تركي للعمل؛ فهم أنه سيدفع نصيبنا معًا وزيادة؛ حتى لا يشعرا ببطالتي ولا يشعراني بها، لكن هيهات.

فأعطاه مبلغًا كبيرًا من ماله يكفيه لثلاث شهور على الأقل -غالبًا هو كل ما يملكه أخي!- لكنه لن يأبه بحاله وكيف سيلبي احتياجاته بعدما أعطاه كل ما يملك؛ المهم لديه الآن المشهد الأخير وليس كواليسه! وكالعادة هرع إلى غرفته "معها" وأغلق الباب جيدًا ليُضاجعها؛ ها هو رد فعله كلما شعر بالعجز، وكأنه يثبت لنفسه أنه لايزال قادرًا على شيء وليس كأي شيء! لا زال رجلًا لم تنضب خصوبته بعد، مازال يَرغب ويُرغَب به! لازال هو المتحكم في حفظ توازن البيت وأن يده هي العليا!.

****

أخي.. العلاقة الوحيدة الآمنة في هذه الحياة هي علاقتي به، ثُمَّ رفيقتي التي باتت علاقتي بها محدودة جدًا بطبيعة الحال.

ما أجمل الحرية في العلاقات! أن أتركه دومًا على راحته؛ يحكي ما يشاء ويسرّ ما يشاء، يخرج أينما شاء ويأتي أنّى شاء، لا أقيم عليه الحد إن تأخّر ولا أنهال عليه بالأسئلة؛ أين كنت ومع مَن وإلى أين ذهبت ولماذا وماذا وهل ومتى..؟ وكافة أدوات الاستفهام التي أطرحها قبل ثرثرتي! لأنه إن أَمِنَ لقلبي ووثق في روحي؛ سيتحرر من قيوده في حضرتي من تلقاء نفسه، سيخلع طوق جيده الذي يُعيق تنفُّسه، يزيل أكياس الرمل المربوطة عند قدميه ويُحلّق عاليًا معي في سماء الحرية.

يدري تمامًا مدى وعيي؛ وكم أنني أُحسنُ ظني فيه عندما ينسى أو يخطئ أو يتحدث بشفافية ويتفوّه بكلمات عارية دون الحاجة للبحث عما يسترها لئلا أُسيء فهمها وأتّهمه بالانحلال الفكري، وكم ألتمس له الأعذار ولا أُحمّله مالا يطيق من اللوم والعتاب اللذين يُنهيان أغلب العلاقات مهما كانت درجة ترابطها!

لقد ترفّعتُ معه عن الشكوى من جميع الخلائق دون داعٍ!

لقد علّمني -دون أن يُملي عليّ ويوجّهني- أن أفضفض بكل ما يحلو لي دون إثارة غضبه ونفاد طاقته ووقته وأعصابه! أن أحكي بطريقة مباشرة وواضحة ما يثير قلقي دون التلاعب بالكلمات أو الشروع بالمقدمات الطويلة التي ليس لها قيمة إيجابية أبدًا.

لستُ بحاجة إلى إبرام الوعود قبل كل حديث بألّا أخون أمانته وأفشي سره، وليس بحاجة إلى القسم عشرات الأيْمان بقوله الحق لأثق به دون برهان!

أن أجد مَن يُنصت لي ويحافظ على تواصله البصري معي دون ملل أو مقاطعة، وأن يجد مَن تُحلل النقاش تحليلًا نفسيًا وتعطي له النصيحة التي يحتاجها وتراعي ثقته بها، وأنه ترك الجميع وقصدها بالذات ليسمع منها مالم يُقال من غيرها.

ولقد تبادلنا الأمر ذاته، واتفقنا دون اتفاق، وتعاهدنا بصدق دون ميثاق، وهذه أسمى مراتب الحرية.

كل منا تتوق نفسه إلى سلاسة ممارسة المشاعر وتوصيلها كما هي دون أن تجد ما يعرقلها ويُشوّه نقاءها! كلنا بحاجة إلى الحرية لا إلى مَن يَشدّ قبضته حول عنقنا يُحاسبنا على كل فعل عفويّ وكل كلمة قيلت سهوًا على سبيل البساطة.

دق فوراً على باب غرفتي ليطمئن على حالي ويعرف كل شيء كانا هما في غنى عن معرفته!

بمجرد رؤيتي لأخي انتفضتُ وقمتُ أعانقه بسرعة حتى نسيت أمر ندوبي، فتأوّهتُ من شدة الألم عندما ربت على ذراعي وابتعدت لا إراديًا حتى لفت تصرفي انتباهه وسألني؟ قلت: لا شيء. كرر سؤاله؛ فكررت جوابي، حاول الاقتراب وكشف ذراعي لكنني رفضت وهذا ما أثار فضوله ورعبه في اللحظة ذاتها! خاف أن يكون أحدهما تعدَّى عليَّ بالضرب مجددًا فاقترب

مني وكشف ذراعي بحنان؛ تألمت من لمس الثوب ندوبي، وتألمت أكثر عندما رأيت ملامح وجه أخي وهو يشهق فزعًا ويفتح عينيه عن آخرهما غير مصدق لما يراه، ظل يرفع كم ثوبي آملًا أن تنتهي الندوب لكنه فوجئ أنها مخطوطة من أول ذراعي لآخره! وقبلما يسألني عن شيء؛ عانقني طويلًا، عناقه الدافئ الذي أعشقه واشتقت إليه كثيرًا، ربما لو كان عانقني ذلك اليوم وأنا عائدة من عملي؛ لَمَا كنت فعلت ذلك ورب الكعبة! هكذا عندما لم يعانقني في كل منحنى أمرّ به في حياتي؛ أؤذي نفسي بالتفكير القاسي وأجلد ذاتي ولم أجد من يحتويها فأجلدها مجددًا لأنها وحيدة ولا يوجد معها من يحميها وكأنني أستغل ضعفها!

بكيت.. بكيت كثيرًا، شيء أشبه ما يكون بالانتحاب، بكيت وكأنني أول مرة أبكي وأجرب شعور الحرقة والحزن، أو كأنني سأودّع الدموع وسأبكي لآخر مرة في حياتي!

لم أكن أحتاج سواك يا نبض قلبي من كل هذا العالم المخيف، أنت الوحيد الذي تعرف مداخلي ومخارجي وكافة تفاصيلي دون حاجتي للكلام والشرح لساعات! كم كنتُ بحاجة إلى عناقك وميل رأسي على قلبك الحنون الذي هو بمثابة مساحتي الآمنة في خضم هذا الوضع الخطر!

أنت الحرف الصحيح الوحيد في صفحة مليئة بالأخطاء!

لقد أثر غيابك بالسلب على حياتي أكثر، لقد كنتَ ومازلت حلقة الوصل الوحيدة بيني وبينهم ومن وقتها وشعور الغربة مسيطرًا على فكري وقلبي!

لقد اشتقت إليك كثيرًا يا نور العين وروح الفؤاد، لا أدري ماذا كنت فاعلة بنفسي أكثر؛ إن لم تدق بابي اليوم!

اتركني بين ذراعيك هكذا ليومين على الأقل، لعلّ ندوب جسدي وروحي تتعافى من تلقاء نفسها دون حاجتي لطبيب، لعلّ روحك تنغمس في فؤادي وأصارع بك الحياة وأنت بعيد، علّني أتجرأ على مواجهة الحياة وحدي. بعناقك يا حنين فؤادي وحناني تلتئم جروحي وتُشحَن طاقة تحمُّلي لأسوأ شيء يمكنني مواجهته حتى تنفد طاقتي وتنفرج جروحي وتعودَ إليّ؛ فتعود إليَّ روحي وألتئم من جديد!

سحبني من يدي برفق وجلسنا على الأريكة نتحدث عن أمر الندوب، كما لاحظ استغنائي عن زينة شعري الذي بدأ ينبت فوق رأسي..

-لماذا فعلتِ بنفسك هكذا؟ أهانت عليكِ نفسك لهذه الدرجة؟! أهنتُ عليكِ؟ لقد نقشتِ ندوبك في قلبي أنا يا جود!

أين شعرك الأسود الحريري الطويل الذي أحبه وأعشق تصفيفه ليلًا ونحن نتسامر على ضوء القمر؟!

-لم أفكر بالمنطق، لم أرَ حينها إلا معاقبتي على أفعال ربما لم أكن السبب فيها، ولكن مؤخرًا عاقبت نفسي على فعلتي كي لا أكررها مجددًا وأعذب حيوانًا ضعيفًا وضع ثقته وأمانه بي وخذلته!

-وبعدما عاقبتِ نفسك وعاقبتني معك؛ هل عادت قطتك إلى الحياة؟! أين كنتُ؟ لماذا لم تخبريني وأنا معك يوميًا على الهاتف تقريبًا بقدر المستطاع!

لماذا حينما كنتُ أسألك عن حالك؛ تخبريني أنك بخير وأنت لست كذلك! منذ متى ونحن نخفي الأسرار عن بعضنا؟!

-لم أكن أريد إزعاجك أو أن أشعرك بالعجز؛ ستغضب وتحزن وحدك وأنت بعيد غير قادر على طلب إجازة والسفر إليّ في أي وقت شئتَ! أنت في جيش ولستَ في نادي!

-حسنًا.. لكنني سأكون معك عبر الهاتف في كل أوقات فراغي، سأكون بجانبك داعما لكِ حتى لا تفكري في الانتقام منا كما فعلتِ! وهل كلما سيحدث لكِ شيء وتمر عليكِ ضائقة ما؛ ستنقشين ندوبًا جديدة على جسدك هكذا؟! ماذا بكِ؟

لاحظ انفعاله ثُمَّ حاول تهدئة نفسه وخفض صوته وعانق يدي بيديه وأكمل: حبيبتي.. أنا بجانبك وسأظل معك أبد الدهر حتى يقبض الله روحي، لن أهملك وأنشغل عنك أبدًا ما حييت، حتى في أوج انشغالي والله أفكر بك وأدعو الله أن تكوني بخير لأجلي، أنتِ تعلمين جيدًا أنه ليس لدينا أحد في هذا العالم، لكن آمل أن ينفرج الوضع قريبًا وتُرزقين بزوج يشاركني في حبك وأغار منه وأقتله حتى أحبك وأعتني بكِ وحدي!

فانفجرنا ضاحكين وجعلنا نتحدث حتى غربت الشمس وأشرقت، غير آبهين بما يحدث حولنا.. ولم يتركني ويذهب للنوم حتى أعطيته موثقًا من

الله ألا أكرر فعلتي مجددًا، لكن هناك شيئًا ما بداخلي يشي بعدم وفائي بوعدي ولا أدري ما السبب!

لقد وعدني بالبحث عن عمل جديد ألتحق به مؤقتًا لحين انتهائه من الجيش كي لا أقيم بالبيت طوال الوقت وتنشب الخلافات بيني وبينهم، ومن ثَمَّ سيأخذني للسكن معه في شقته الذي استأجرها بجانب عمله، وأنا غير قادرة نفسيًا على البدء في عمل جديد ومرافقة شخصيات جديدة واضطراري للحديث معهم! صدقًا لقد نفدت طاقة الكلام بداخلي، لكن على كل حال لا يوجد حل للمكوث خارج البيت معظم الوقت غير هذا!

لكن إجازته قصيرة، والبحث عن عمل مناسب لي وكي يشعر أنه آمن عليّ، وألا تكون مواعيد الانصراف منه متأخرة، ومدى قربه من البيت، وراتبه المناسب لخبرتي في التعامل مع الحيوانات -لقد آمن بي وبقدراتي على علاجهم وكأنني طبيبة بيطرية تمامًا-؛ كل هذا ليس أمرًا سهلًا أبدًا، وبالتالي رفض فكرة التحاقي بأي عمل غير مناسب لمجرد خروجي من البيت، فوعدني أنه سيسأل أصدقائه وسيجلب لي البشرى في إجازته القادمة، وبما أن نزولي واختلاطي بالناس في وضعي النفسي الحالي كان أمر غير مرحَّبٍ به أبدًا؛ استسلمت لاضطراري لمكوثي داخل بيتنا الدافئ! هو دافئ فعلًا ليس على سبيل السخرية وإنما من أثر نشوب الحرائق والمشكلات وتبادل الشتائم والإهانات فيه!

كان كلما ينشب خلاف في البيت؛ أشعر بالخوف الشديد رغم أن المشكلة لا تخصني أبدا -لأنني قررت أن أتجنبهم طوال الوقت بقدر المستطاع لأن عدم التفاهم الذي بيننا يجعلنا نخلق الخلافات في كل اختلاف لوجهات النظر فكان من الأفضل ألا نتحدث أصلًا-

لكنني حينها أشعر بخطر مباشر موجّهًا لي، فأشعر بانقباض عضلة قلبي، أتعرق عرقًا شديدًا، تسري البرودة في أوصالي، ترتعش أطرافي وجسدي بشدة، وتشحب ملامحي، فأشعر بضيق شديد في التنفس. كان الأمر غريبًا عليّ في المرة الأولى لكن بتكرار الأعراض وزيادتها أو نقصانها في كل مرة؛ قررت الذهاب لاستشارة طبيب نفسي من باب " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"، ولاسيما أن الأعراض لم تقتصر على حدوث مشكلة في البيت أو لسبب ما، وإنما أصبحت أشعر بها في أي وقت وفي أي مكان!، وفي كل مرة يزيد عرض على الأعراض الأساسية أو بالتبادل معه. أذكر أنني ذات مرة شعرت باضطراب في معدتي وتقلصات، ثُمَّ شعرت بعدها مباشرة بالغثيان، ومرة أخرى شعرت كأنني انفصلت عن المكان الذي أنا فيه وكأنني فقدت وعيي لمدة معينة ولم أكن أرى سوى غيمة سوداء أمام عينيّ، ثُمَّ بدأت بالإفاقة ووضحت الرؤية شيئًا فشيئًا، ومرة شعرت بالخدر والتنميل في أعلى ذراعيّ وحول رقبتي مما أشعرني بالاختناق وصعوبة شديدة في التنفس؛ شعرت وقتها وكأن روحي صاعدة لبارئها، ثُمَّ سرعان ما هدأت وعدت لحالتي الطبيعية! المشكلة أنني عندما حاولت الاستغاثة بأحدهما؛ لم

يأخذاني على محمل الجد! أيقنا أنني أتمارض وأقوم بالتمثيل عليهما علّهما يعاملاني بالحسنى أكثر! وأنني ممثلة بالفطرة وجعلا يذكران عندما كنت صغيرة وذهبت أحكي لرفيقتي وأمها أحداث خيالية، ثُمَّ قاما بتركي وحيدة أتعذب وانصرفا! مما زاد الأمر سوءًا عليّ. يبدو أن الخطأ الذي ارتكبته في طفولتي؛ سأظل أُحاسَب عليه طيلة حياتي وحتى موتي!

قال الطبيب أنها "نوبة هلع" أعراض تأتيني عندما أشعر بالخطر والخوف ولاسيما إذا كنت مصابة بأحد أنواع الفوبيا من شيء ما وقمت بالتعرض إليه فجأة، أو لفرط حزني وغضبي من شيء ما. ثُمَّ جعل يحدثني عن فنون الاسترخاء واللامبالاة بما يدور حولي قدر المستطاع ولاسيما إن كنت غير قادرة على منعه، والسيطرة على مشاعري أكثر كي لا تتكرر النوبة مجددًا، وأعطاني تمارين للاسترخاء والتنفس بشكل سليم للوقاية من ضيق التنفس؛ أن أقوم بأخذ شهيق، ثُمَّ أحتفظ به مدة معينة بداخل رئتيّ، ثُمَّ أقوم بعملية الزفير بهدوء وأكررها، وأن أغمض عينيّ حين حدوث النوبة كي أركز على كيفية التنفس السليم لأخرج منها بسلام في أقصر وقت، وأن أوقن حينها أنها مجرد نوبة وستمر بسلام كي لا يتضاعف خوفي على نفسي وأصاب بسكتة قلبية لاقدر الله! وأن أركز كل تفكيري حينها في مواقف جميلة مررتُ بها في حياتي أو تخيُّل أنني أجلس في أحب الأماكن لقلبي أو أتحدث مع أقرب شخص لي، وإن كان متواجد في نفس المكان؛ لا بأس من احتضانه طلبًا للتهدئة والحد من القلق كي لا يزيد الأمر سوءًا، وإذا كنتُ

قادرة على الحركة؛ أقوم بالمشي أو الجري في مكاني، المهم هو تغيير وضعية الجسم لمساعدة نفسي في الخروج من الأزمة. كلها إسعافات أولية قبل اللجوء إليه، ومحاولات قبل اللجوء إلى العقاقير المهدئة!

ثم أعطاني رقمه وطلب مني قبل انصرافي أن أكرر زيارته بعد أسبوع أو أقوم بالاتصال به إن تكررت نوبتي قبل موعد الزيارة.

لم تتكرر نوبتي فلم أتصل به ولم أذهب إليه! إن كنت عاطلة عن العمل؛ إذًا فلن يكن هناك مبرر للخروج، وبطبيعة الحال علمت بزيارة ابنهم الكبير مع زوجته وأطفاله فكان الخروج من البيت مرفوض بكل الأحوال! لم أكن أراه منذ مدة طويلة ورغم ذلك بمجرد رؤيته شعرت ببعض أعراض نوبتي! لم تكن المرة الأولى التي أشعر فيها بهذه الأعراض عند رؤيته منذ فعلته المشينة؛ ولكنها المرة الأولى التي تأتيني فيها النوبة وأنا على دراية تامة عن أسبابها وأنها تعتبر اضطراب نفسي يسمى بنوبة الهلع وصدق من قال إذا عُرِفَ السبب؛ بَطُلَ العجب! هل بعد كل تلك السنوات التي مرت؛ مازال فعل كذلك يؤثر فيّ لهذه الدرجة؟ يبدو ذلك! كما يبدو أن جميع التصرفات الناجمة عن تربية خاطئة من قِبل الأهل؛ مؤثرة في الأبناء طوال حياتهم، فمنهم من يقرر أن يقطع الدائرة ويوقّف الأذى عنده ويتجنب معاملة أهله الخاطئة له؛ عند معاملته لأبنائه كي لا يشعروا بمرارة ما شعر به يومًا، وأن يراعي نفسيتهم طوال الوقت ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وإما أن يقرر أن يغلق الدائرة ويدور في مدارهم بنفس الأسلوب ويعاملهم كما عومل

ويغلق أذنيه عن الوعي بالتربية السليمة والتطوير في طرق التربية المعاصرة التي تناسب كل جيل على حدة؛ كما فعلا تمامًا "هو وهي"!

اتصلت بالطبيب بعد انتهاء نوبتي وحاولت عمل نصائحه لكنني لم أتحسن إلا بنسبة ضئيلة جدًا، أعلم أن التحسن لن يكن بين عشية وضحاها وإنما الحلم بالتّحلّم، فحدد لي موعدًا بدل موعدي الذي مر، اضطريت للكذب عليهما عندما سُئلت عن وجهتي، لن يعترفا أبدًا بأهمية اللجوء للطب النفسي على أية حال طالما أن الأعراض التي تؤلمني غير مرئية -حتى لو كانت مرئية؛ لن يصدّقاني!- ورغم ذلك كل ما هو غير مرئي؛ مرهق جدًا جدًا جدًا أكثر من الأعراض المرئية لو يعلمان!

قلت ذاهبة للبحث عن عمل، فوافقا على الفور غير آبهين بسبب تركي للعمل السابق، لا بأس بالماضي المهم المستقبل، لا بأس بخروجك الآن المهم أن تلتحقي بعمل سريعًا لتحملي عن كاهلنا احتياجات البيت! لا بأس بمواعيد عملك ولا الخبرة المطلوبة ولا المؤهل ولا أين يقع ولا كم راتبك، المهم أن الراتب يكفي لنعود لحياتنا الطبيعية ونفتح الباب لاستقبال أقاربنا، أقاربنا الذين كانوا يقومون بشراء لوازم إقامتهم عندنا، لكن بمرور الوقت صارت الظروف لا تسمح، وأصبحوا يقيمون مجانًا ليوفروا مصاريفهم لأنفسهم عندما يعودوا لمنازلهم، وهذا الطبيعي في واجب الضيافة أصلًا؛ أن نقوم بإطعام ضيوفنا على حسابنا بالكامل، لكن بشرط أن يكونوا ضيوفًا فعلًا لا مقيمين كأهل البيت لأسبوعين وأكثر!! وبما أن

ظروفهم المادية صارت صعبة؛ إذًا بالتأكيد فهي صعبة لدينا أيضًا! ومَن يقدم المساعدة شهرًا؛ لن يقدمها كل شهر لأبد الدهر! الكل يمكنه المرور بضائقة مادية في أي وقت ولم يقتصر الأمر عليهم وحسب! لكنها مشاعر؛ رُزِقَ بها مَن رُزق، وحُرِمَ منها مَن حُرِم!

ذهبت للطبيب، سألني هل يُشكّل أخوك عليك أي تهديد أو خطر؟ كذبت وأجبت: لا طبعًا هذا أخي وسندي وحمايتي، إنه بمثابة أبي الأصغر!

ظل متحيّرًا يبحث معي عن تفسير لشعوري بالهلع هذه المرة! أعترف أنني لم أساعده لمساعدتي وكان هذا أول خطأ ارتكبته في حقي أنا!! شعرت بالعار ولم أجرؤ على الإفصاح عن سري يومًا لأي مخلوق، خشيت أن يضربني كما ضربتني "هي" عندما عَلِمَتْ بالأمر! لم أحسبها بالمنطق أيضًا، لكنني حسبتها وفقًا لتأثير الأذى بداخلي عبر السنوات! فخرجت من عنده بعدما قررت ألا أكرر زيارته مجددًا! في كل الأحوال لن أجرؤ على فتح باب غرفة الذكريات المغلقة بداخلي! وطبيبي لن يمكنه مساعدتي طالما سبب كل هذياني واكتئابي وهلعي؛ بداخل تلك الغرفة!! هذه المرة كذبت وأخبرتهم ببحثي عن عمل، ماذا ستكون إجابتي عند موعد الجلسة القادمة؟ وكيف سأستمر في الجلسات إن وجد لي أخي عملًا فعلًا؟ بالتأكيد سيتعارض عملي مع موعد جلستي فلن أحصل على الإفادة الكافية، بالإضافة إلى أن سعر الجلسة مُكلّف جدًا ومالي الذي ادخرته لمثل هذه المواقف أوشك على النفاد،

وإن علم أخي بأمر جلساتي تلك سيحزن عليّ جدًا ولاسيما أنني لم أخبره حتى الآن بنوباتي! الأمر مُعقّد جدًا..

وكعادة أرقي؛ يزورني كل ليلة كضيف ثقيل يحرمني من الاستمتاع بنوم هادئ أتخلص فيه من آلامي الجسدية والنفسية كي أكون قادرة على ممارسة يومي الجديد بنشاط، كنت أعاني من الأرق وكثرة الاستيقاظ أثناء نومي لأكثر من ثلاث مرات دون سبب! لكن الأمر في هذه اللحظة بالذات بدا غير طبيعي؛ واصلت ليلة أمس بمطلع نهار اليوم بليلة اليوم بمطلع نهار الغد! وكلما حاولت الاسترخاء والاستسلام للنوم؛ أستيقظ فزعة كأنني أخشى من شيء ما، ثُمَّ أكرر المحاولة فتتكرر النتيجة لكن بالإضافة إلى رؤية كابوسٍ مخيفٍ هذه المرة، ثُمَّ يعلو صوت أذان الفجر وتغرد العصافير وتصيح الديكة وتشرق الشمس ويستيقظ كل من في البيت وتعلو أصواتهم فيستحيل استرخائي ومحاولاتي مجددًا! فيحدث في ليلتي ما حدث بالأمس! لم أكن أتخيل أن يأتي عليّ يومٌ يكون فيه كل ما أتمنى؛ أن أنام نومًا عميقًا فقط لمدة ثلاث ساعات متصلة!.

تمر الأيام والليالي وأرقي ثابت على مبدئه! فاتصلت بطبيبي أسأله عن حل مؤقت، فنبّهني لخطورة الأرق على صحتي ونفسيتي؛ قال: إن الأرق المبالغ فيه يسبب سكتة دماغية لا قدر الله بسبب تلف بعض خلايا المخ بسبب عدم حصول الجسم على حاجته من النوم من 6 إلى 8 ساعات متصلين

يوميًا، كما يسبب ضعف الجهاز المناعي لحاجته إلى الراحة حتى يتمكن من أداء وظائفه بصورة جيدة، وبالتالي فإن الأرق قد يؤثر سلبًا على صحتك، ومنه يكون جسمك في عُرضة لاستقبال كافة الفيروسات والأمراض وخاصة مرض السكري وزيادة الوزن لاضطراب حرق السعرات الحرارية وتعطيل بعض الغدد المسؤولة عن الحرق أثناء النوم حيث أن قلة النوم تسبب انخفاض في هرمون اللبتين الذي يسمى بهرمون الشبع، وارتفاع هرمون الجريلين المعروف بهرمون الجوع، وبالتالي فإن زيادة الرغبة في تناول الطعام من أضرار الأرق، بل وتزداد الرغبة في تناول الأطعمة الغنية بالدهون والكربوهيدرات والسكريات. كما يسبب ارتفاع ضغط الدم؛ فقدان التوازن والترنُّح أثناء المشي، وزيادة الحساسية للألم؛ خلال فترة النوم يحصل جسمك على الراحة اللازمة لتخفيف الآلام المختلفة بجسمك، ولكن في حالة الأرق وقلة النوم، يمكن أن يزداد الشعور بالألم في مختلف أجزاء الجسم، وخاصةً المناطق التي تعاني أصلًا من مشكلات صحية.

أما عن أضراره النفسية: فتبدأ بتشتت الانتباه وانعدام التركيز والنسيان ومنهم؛ صعوبة اتخاذ أي قرار خصوصًا إذا كان قرارًا مصيريًا، مرورًا بفرط الانفعال والعصبية من أقل الأشياء، الشعور بالقلق والتوتر والخمول والإجهاد العام معظم الوقت، شحوب البشرة لتصبح باهتة، انتفاخ العيون وظهور الهالات السوداء أسفل العين، ظهور خطوط تجاعيد رفيعة

وعلامات الشيخوخة المبكرة في مختلف المناطق بالبشرة، وصولًا للاضطراب النفسي والانهيار العصبي والاكتئاب الحاد!

ثم نصحني بتغيير نمط نومي؛ وذلك من خلال الاعتياد على المبالغة في الاسترخاء عامة على مدار اليوم وخاصةً مساءً، ثُمَّ النوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا، وبمرور الوقت سوف تصبح مهمة النوم أكثر سهولة ليلًا. تهيئة الأجواء المناسبة للنوم؛ قبل الخلود إلى النوم يجب عليّ القيام بتهيئة الأجواء المحيطة لتوفير الهدوء والراحة اللازمة للاستغراق في النوم، مثل تخفيض الإضاءة وإيقاف أي أصوات مزعجة. تجنب العادات الخاطئة التي تسبب الأرق؛ مثل الجلوس على الهاتف أو تشغيل التلفاز أثناء النوم. عدم ممارسة الرياضة قبل النوم مباشرة؛ على الرغم من أهمية الرياضة لكن ممارستها قبل النوم مباشرةً؛ لأن ذلك سوف يؤدي إلى زيادة الشعور بالنشاط، وبالتالي يؤدي إلى الأرق. كما نصحني بعدم تناول الطعام والشراب قُبيل النوم مباشرة خشية الإصابة بعسر الهضم والحموضة وحرقة المعدة، كما أن كثرة الشرب تؤدي إلى الاستيقاظ للتبول وهذا من مسببات الأرق، كما نصحني بالتقليل من المنبهات والمشروبات التي تحتوي على الكافيين وإن لم يُعالَج الأرق في غضون ثلاثة أيام بعدما أنفذ نصائحه؛ سيضطر لكتابة عقاقير منوّمة كحل مؤقت فقط لجلب الراحة والاسترخاء لمدة معينة.

حاولت الأخذ بنصائحه لكن بلا جدوى ولم أصل إلى أية نتيجة مع الأسف، فاضطر بدوره أن يكتب لي نوعًا من المنوّمات بجرعة مكثفة في أول ثلاث ليالي ثُمَّ تقليل الجرعة فيما بعد.

ما إن استسلمت للنوم حتى رأيت تشييع جنازتها "هي" والجميع يبكي وينتحب ما عدا أنا! ترتسم على وجهي علامات الجمود وكأن الفقيدة لا تربطني بها أي قرابة!

شعور مختلط، مزيج بين القهر والعزة، الحزن والفرح، الظلم والعدل، التيه والوصول!!

عندما يقبض الله روح أكثر إنسان ظلمك وقهرك على وجه الأرض، لا تدري حينها إن حزنت عليه؛ هل يعتبر حزنك خيانة لوجعك؟! وإن شعرت بالرضا عندما تتحقق عدالة السماء؛ ففرحت وحمدت الله، هل يعتبر فرحك؛ خيانة لإنسانيتك؟! هل تعتبر كائنًا فاسقًا لا يُعظّم مصيبة الموت ويُقدّره حق قدره؟!

وسرعان ما استيقظت من نومي! لا أدري أأحزن أنه كان مجرد حلم؟ أم أشعر بسعادة لأنني أخيرًا نمت ثلاث ساعات متصلة!

دائمًا كل الآباء يخشون أن يموت أحدهما وهو غاضب على أحد أبنائه ويظل الولد يتجرع الندم طوال حياته لأنه عاق ووالده مات وهو غاضب عليه، يظل قبيل وفاته ينصحه ويرعبه؛ سأموت وأنا غاضب عليك يا بني.. احذر غضب الله عليك طوال عمرك، احذر من عدم توفيقك في حياتك العملية

والاجتماعية... إلخ، لكن ليس هناك مَن يخشى أن يموت ابنه وهو غاضب عليه!!

نعم هناك شيء يدعى حق الأبناء على الآباء كما هناك ما يسمى بحق الآباء على الأبناء!

الله سيحاسب الجميع وليس الأبناء وحدهم!.

****

الشهور تمر والسنوات ويبقى الحال كما هو عليه، لا يتغير في حياتي سوى زيادة في العمر والهم من ناحية، وتتوطد علاقتي بأخي من الناحية الأخرى؛ علّ الحياة تتوازن وتستقيم! بعدما أنهى خدمته في الجيش؛ ذهبت وأقمت معه كما وعدني، لكن سرعان ما جاءته فرصة للعمل في الخارج وبالتالي لن يضيعها، كان العائق الوحيد في طريقه للموافقة؛ هو أنا! كيف سيرحل ويتركني وحدي بينما كنتُ أصبّر نفسي بفترة جيشه المؤقتة وأصارع كي أحيا بسلام قدر المستطاع دون اللجوء لأذى نفسي كل حين!

ومع المناقشة والمد والجزر وافق على سفره لأنني أعطيته موثقًا من الله أنني سأخبره بأدق تفاصيلي وأطمئنه على أخباري يوميًا في البيت والعمل الذي ألحقني به قُبيل سفره بأيام.

قبّلته قُبلة الوداع وعانقته العناق الأخير وكأنني لن أراه ثانية! صدقًا شعرت أن روحي خرجت من جسدي، لكن حاولت التظاهر بالتماسك كي لا أعرقل دربه مجددًا، فأخي حنون كريم جوّاد يستحق النجاح والعيش بهناء لأجله ولأجلي وسأكن أول الداعمين له حتى لو سفره وبُعده عني ضد مصلحتي النفسية، لكنه يستحق الدعم بحُب.

فارقني.. فانطفأت الحياة في عيني، جعلت أنظر للعالمين بعينين جامدتين، بلامبالاة، لم يعد أي شيء يُشكِّل فارقًا معي، لقد وصلت للمنتهى بعد رحيله، وصلت للمرحلة النهائية في سباق الحياة، للنقطة التي ينتهي عندها

كل شعور، لقد فقدت ملامحي؛ تركتها بصمة تذكارية على كتفه عندما عانقته العناق الأخير ففقدت نفسي!

بعد سنوات من التيه والضياع بلا أخي..

تقدّم لخطبتي ابن صاحبه "هو"، يكبرني بعشرة أعوام، يمتلك شركة ملابس سيدات ورجال وأطفال، ومصنعًا ملحقًا بها، يعمل في التصدير والتسويق المحلي والدولي. كما يمتلك أحدث سيارة، أحدث هاتف، وعقارًا به إحدى عشر طابقًا، وبكل طابق ثلاث شقق، له طابق خاص به بحيث أنه جعل الثلاث شقق؛ شقة واحدة وبالطبع مساحتها شاسعة جدًا، وطابق لأمه وأبيه، وأخويه الاثنين، وباقي الشقق قام بتأجيرها للغرباء كمشروع مربح، وساعده على ذلك؛ أن موقع العقار في حيّ راقٍ جدًا.

عمري الآن تخطى حاجز الأربعة والثلاثين وهذا شيء كما تعلمون عظيم، كيف لعانس مثلي أن ترفض أي شاب؟ هو فقط الذي من حقه الرفض! لابد أن تستغل الفرصة ولاسيما لو كانت عظيمة مثل هذه! ولاسيما أنه لم يكن يتقدم لخطبتي الكثير ولا أدري ما السبب غير أنه رزق لم يمنحني الله إياه. وافقوا دون إخباري! لم يخطر ببالهم فكرة الرؤية الشرعية أولًا، ثُمَّ التعارف والمناقشة، ثُمَّ إعطائي حقي في القبول أو الرفض كأي فتاة حتى لو سبق لها الزواج من قبل! وكأن الموافقة مفروضة عليَّ، بأي حق أرفض أصلًا؟! لم يراعوا فرق السن بيننا؛ هو **44** وأنا **34**، أو فرق التعليم؛ مؤهلي جامعي

ومؤهله إعدادي، لكنه ثري وأنا فقيرة وهذه الميزة بإمكانها التوقيع بالموافقة أسفل عقد القِران بضمير مرتاح!

حاولت التلميح بالرفض لأنني موقنة أن المادة ليست الأهم في الحياة، نعم مهمة جدًا وتُيسِّر علينا محطات الحياة القاسية لكنها ليست السبيل الوحيد للحياة. لنجاح الزواج مُقوّمات كثيرة غير الثراء وإن كان فاحشًا هكذا!

عندما جاء مع أهله لخطبتي رسميًا؛ رأيته للمرة الأولى.. كان دميم الوجه، أقصر مني! شعره مجعدًا، ذا لحية كثيفة، قمحي البشرة، أنفه وشفتاه كبيرين.. أستغفر الله لم أقصد التنمر على خلقة الله، لكنني قُبِضتُ عندما لمحته ووقع الرعب في قلبي، ليس بسبب ملامحه وحسب ولا أدري ما السبب الرئيس وراء شعوري!

كل ما أعلمه أنه لم يوضع القبول في قلبي. القبول الذي هو شرط من شروط صحة الزواج! حاولت التحجج بعدم وجود أخي وتأجيل أي خطوة رسمية لحين عودته، لكننا لم نعرف حتى الآن متى سيعود، هو شخصيًا لم يعرف؛ تحديد موعدٍ لأول إجازة بعد الالتحاق بعمل جديد في الغربة؛ شيء أشبه بالمستحيل ولاسيما أنه يصارع لإثبات جدارته وتثبيته في أرض ثابتة.

جاؤوا مُحمّلين بالخيرات ومؤن للبيت -يبدو أنه فهم من أول لقاء بأهلي؛ كيف سيضعهم في جيبه ويضمن ولاءهم، علم من أين تُؤكَل الكتف- جوالات خضروات وفواكه وحبوب ووو....، خيرات يمكنها غلق أفواههم

وعفّ أياديهم عن مدّها وطلب المساعدة من أي شخص قريب كان أو بعيد لمدة لا تقل عن ثلاثة شهور من ذلك اليوم! الجميع سعيد هنا باستثنائي، لم يسألني أحد عن رأيي لأنهم قرروا الموافقة أصلًا، فرصة كهذه لن تُعوّض أبدًا، فرصة ستمنحهم الحياة التي اشتاقوا إليها منذ أن فقدت عملي وفقدوا مساعدة الأقارب! الرجل قام بالسؤال علينا وكل الجيران شكرت في أخلاقنا وديننا ولله الحمد، لكننا بالطبع لم نقُم بالسؤال عليه لأن الرجل لا يعيبه شيء سوى جيبه معروفة طبعًا! وهم كما هو واضح أنهم أهل كرم وذوي أخلاق وتربية ودين، كلها صفات رأوها من أول زيارة واكتفوا بها.

الجميع سعيد عدايَ! لم يجُل بخاطري عدم القبول وحسب، وإنما ما كان يجول بخاطري طيلة عمري وكنت أحاول جاهدة تجاهل الأمر لحين الوصول إليه وها قد وصلت؛ ماذا لو كنت لست عذراء من حادثة الاغتصاب في صغري؟! كان كلما يتقدم لخطبتي شاب؛ أرفض الأمر وأتحجج بأنني مازلت صغيرة ولن أفكر في الموضوع إلا بعد انتهائي من دراستي! حتى انتهيت وتأخر نصيبي؛ فقلت إنها هبة ربانية لربما يربط الله على قلبي حتى يهدأ من ناحية هذا القلق، لربما أنا عذراء وقضيت طيلة سنواتي في قلق وخوف ليس لهما أي دليل من الصحة، كلما يتقدم موعد عرسي؛ انتفض جسدي من الرعب، وتتردد على بالي الفكرة مجددًا! فكرت أن ألجأ "لها" كي تطمئنني، بالتأكيد هي خبيرة في مثل هذه الأمور وربما هناك شيء معين تعرف من خلاله إن كنت عذراء أم لا قبل يوم زفافي كي لا يفتضح أمري حينها

وأفضحهم جميعًا معي! حتى تراجعت عن الفكرة تمامًا، فهي كذّبتني وأنا صغيرة فهل ستصدقني اليوم؟! بالتأكيد ستفقد وعيها بمجرد أن تسمع مني طرف الخيط، بالتأكيد ستظن أنني أخطأت مع أحد زملائي في العمل واليوم في حاجة إلى الاطمئنان أن خطتي سارت وفقًا لمعياري وأن كل شيء على ما يرام رغم عُهري وسفالتي! ستخبره، ستخبر الأقارب والغرباء والجيران وليشهد جميع الخلائق على خطيئتي! سيرمون المُحْصنة دون البحث عن دليل إدانتها، سيتأكدون من قذارتي على سبيل الاحتياط دون البحث عن **1**٪ لاحتمال براءتي وطهارتي!

أردت أن أقطع الشك باليقين وأذهب لطبيبة نساء لأطمئن، بشرط بُعدها عن حيّنا، دخلت عيادتها باسم مستعار على سبيل الاحتياط..

-ما اسمك؟

-اسمي "سلسبيلا"

-آنسة أم مدام؟

-آنسة

-كم عمرك

-**34**

-تفضلي مم تشكين؟

-أريد الاطمئنان على نفسي من فضلك، هل لازلت عذراء أم لاقدر الله....؟!

وقصَصْتُ عليها القصة كاملة حتى تتفهّم وضعي..

-هل حدث ونزلت بعض قطرات دم حينها؟

-نعم المرة الثانية والأخيرة.

-كنتِ صغيرة جدًا، فربما كان جرحًا سطحيًا في الغشاء وسرعان ما اندمل والتأم وقضي الأمر لا تقلقي.

تم الكشف على غشاء بكارتي الذي من خلاله ستتم فرحتي وفرحتنا جميعًا، وبغيابه؛ سينقلب الفرح إلى مأتم وربما سيرفضون دفني في التراب لأنني سأكون حينها لن أستحق كرامة الميت! وسيعيشون مذلولين أبد الدهر رغم أنهم تخلصوا من عاري إلى الأبد!

مضت دقائق حبست فيها أنفاسي رعبًا وقلقًا حتى سمعت البشرى..

-لازلتِ عذراء.. مبروك!

تنفّستُ الصعداء، لقد أزاحت ملاك الرحمة هذه الجبل الذي كان موضوعًا فوق صدري طوال عمري، أزالته بكلمة في ثانيتين مروا عليّ عامين ورب الكعبة! لقد عشت طيلة سنواتي في جسم أكرهه وأخجل منه وأشعر بالعار بسببه، مرت عليّ أقسى اللحظات بمجرد تفكيري في هذا الموضوع، لو كنت

ذهبت للكشف منذ عشرين عامًا على الأقل؟ لكانت ستختلف نتائج كثيرة وصلت إليها الآن!

كنت بحاجة شديدة للحديث مع أخي، هاتفته فورًا، ظللنا نتحدث لأكثر من ساعة دون أن أخبره شيئًا عن عدم قبولي لذلك الشاب، فأنا لا أدري إن تم إفشال الزيجة؛ هل سيتقدم لي أحدهم أم لا؟ الوقت يمر، وأنا أريد الفرار من البيت بأي ثمن، بالتأكيد لن يكون البيت الجديد كبيتنا أبدًا مهما كان!

بكيت كثيرًا عندما أخبرني آسفًا أن كل محاولاته في السفر وحضوره لفرحي باءت بالفشل، لكن نصحني بعدم الاستعجال على كل حال.

-لماذا تنجزون كل شيء بسرعة هكذا؟ أليست فترة الخطوبة معناها التعارف والتفاهم واختبار مدى قبولكما لبعضكما البعض أو لا!! أنا غير راضٍ تمامًا لاستعجالكم بهذه الطريقة الغير منطقية أبدًا! على الأقل مدّوا فترة الخطوبة لمدة عام، عام مليء بالمواقف، بالزيارات، بالنقاشات، لتدركي أهذا هو الرجل الذي ستئتمنينه على نفسك وبيتك وأولادك أم لا، لكل منكما طبع مختلف، لقد تربّيتما بطريقة مختلفة، لكل منكما عادات وتقاليد مختلفة عن الآخر، فمن الطبيعي أن تختبرا أنفسكما قبل الزواج لئلا تقعا في الندم يوم لا ينفع الندم! هل الزواج يعني شراء الأثاث وترتيب المنزل وزفاف لا يدوم سوى ثلاث ساعات بفستان أصم وبذلة حزينة؟!

لقد فقد أعصابه عندما أخبرته أنه مُصمم أن يأخذني بدون كرسي أشتريه وأضعه في البيت! لقد ملأ دماغ أبيك أنني "أميرة" والأميرات لا تجلب معها سوى فستانها ومجوهراتها! وبالطبع وافق أبيك على الفور، وافق على فرصة من ذهب دون تفكير، فلن يُكلّفه أحد شيئًا! ولو كنت انتظرت لتكملة جهازي بادخار رواتبي؛ لكنت تزوجت بعد ألف عام! هذا ليس حذاء جديدًا وحقيبة لمدرستي يا أخي ليسهل علينا شراؤهما بادخار مصروفنا معًا، هذا تجهيز بيت كبير جدًا بالكامل، أو على الأقل غرفتين فيه مع أدوات المطبخ مع ملابسي! لم يضعا زواجي في الحسبان غالبًا، فلذلك لم يدخرا له جنيهًا واحدًا، لقد فقدا في أختك الأمل!

-يا نور عيني ونبض قلبي ليس الموضوع هكذا، أنت لازلت جميلة وشابة ومُفعّمة بالأنوثة والحيوية والرشاقة والجمال، ولو بعد عشر سنوات من الآن ستكونين مرغوبة كما السابق والآن، لكنه رزق كما تعلمين وتؤمنين دائمًا، يتأخر ويأتي في النهاية كما يشاء الله له أن يأتي. أصلًا من المفروض شرعًا على الرجل المتقدم لخطبة فتاة أن يتحمل كافة تكاليف الزواج فرضًا لا نافلة ولا جَميلًا يفعله على سبيل الغرور وكسر عين زوجته وقتما شاء! لكن المعروف عُرفًا مشروع شرعًا أيضًا، والعُرف في بلادنا؛ أن يتقاسم العريس مع العروس في تجهيز بيت الزوجية على سبيل المشاركة في الحياة، حتى يتعسّر على أحدهما الاستغناء عن الآخر في أي لحظة مثلًا، وحينها لن يكون خراب البيت على الطرفين سهلًا إلى حدٍ ما! حتى من باب عدم

معايرته لكِ في أول خلاف بينكما لا قدر الله؛ أنه أخذك من بيت أبيكِ بفستانك! سأرسل إليكِ كل ما ادخرته من عملي منذ أن جئت إلى هنا حتى الآن، وأنتِ اعرضي ذهبك للبيع مع رواتبك المدخرة، وسأرسل إليكِ صديقي بقرض سأسدده له شهريًا، واذهبي مع أبيك وأمك لبيت أهله وكوني حريصة أن تسلمي إليه النقود أمام شهود، وكأنك شاركته في شراء ما يلزمكما، حتى تطأ قدميكِ بيته وأنتِ مرفوعة الرأس يا قرة عيني.

أخذت بنصيحته وقمت بحصر المبلغ وأرسلت رسالة لأخي بعد أربعة أيام:

"أعطيت لأبيك **85** ألف جنيه".

لقد قمت بتغليفهم حتى لا ينتقص منهم شيء، وبعد محاولات مني ومن أخي لإقناعه؛ وافق على مضض، بعدما برّر أن ما يحتاجه البيت؛ يحرم على الجامع!

وعندما ذهبنا لتقديم المبلغ لخطيبي؛ لم يخطر أبدًا على باله"هو" أن يفتح خطيبي المظروف أمام أهله ويحصر المبلغ -بعدما رفض رفضًا قاطعًا لكنني صممت أن يأخذهم وإلا لن أكمل الزيجة كما أوصاني أخي-

وبعدما انتهى من الحصر على رؤوس الأشهاد:

-هههههههههه أقسم أنكم أرهقتكم أنفسكم! أأنتم هنا مُصرّين على تقاسمكم معي البيت فقط بـ**40** ألف جنيه وإلا امتنعَت عني أميرتي؟!

وكأن أحدهم سكب فوق رأسي ماءً مثلجًا، لقد لجم لساني من هول الصدمة، واستحى "هو" ونظر عند قدميه فورًا، ثُمَّ ضحك ضحكة بلهاء بصوت مرتفع وتنحنح وقال:

لقد أصرّت ابنتي أن تشارك في جهازها كأي عروس وتخطو في بيتها مرفوعة الرأس فليست أقل من بنات عائلتها! وأنتم الخير والبركة وأهل الكرم والذوق!

لقد شعرت حينها بغليان الدم في رأسي ورب الكعبة، كما توقعت؛ فتح المظروف واختلس من تعبي وشقاء أخي كالعادة، لكنه اليوم بالتحديد قرر أن يفضحني ويكسر عيني ويُقوّس ظهري للأبد ذلًا أمام هذا الشيء الذي لقبوه بـ"خطيبي وقريبًا سيصير زوجي!"

لقد أغلق المظروف بعدما ضحك ساخرًا لنصف ساعة وأكثر، و"هي" جاهلة بحقيقة الأمر ولا تعرف شيئًا وتظن أن الفرحة لا تسعه وأهله بالطبع بل ويجب عليهم أن يحترموننا أكثر منذ تلك اللحظة!

ليتنا لم نأتِ! ليتنا اكتفينا بالمفروض عليه من فوق سبع سماوات! ليتنا لم نجيء للسخرية والاستهزاء بخطى ثابتة! ليت الأرض تنشق وتبلعني، ليتني لم أولَد أصلًا!! كيف سأضع عيني في عينيه من الآن؟! كيف سأضمن احترامه لي بعد اليوم؟ كيف سأخبره أنني أعطيت أبي وسندي مبلغًا كهذا ليشارك في عرسي؟ كيف سأخبره "أنه" سرق نقودي بدلًا من أن يمنحني إياها من البداية؟!

بمجرد أن لمست قدماي أرض سيارة الأجرة في طريقنا للعودة؛ داهمتني نوبتي من جديد، لقد شعرت بالاختناق لدرجة أنني فقدت وعيي، كان بيني وبين طلوع روحي لبارئها ثانية واحدة، لكن الله سلَّم!

ذهبنا للمشفى ففعلوا اللازم، وبكيت، بكيت كثيرًا جدًا، حتى عَلا نحيبي فاضطر الطبيب أن يتدخل بحقنة مهدئة، لكن قبل أن يسير مفعولها في وريدي؛ طلبت منه أن يتحدث إلى طبيبي النفسي ويحضره بعدما ينصرفا ويتركاني وشأني..

"دكتور من فضلك أنا متعبة نفسيًا جدًا جدًا وبحاجة إلى المبيت هنا لأكثر من يوم وإلا ستبوء كل محاولاتكم لعلاجي بالفشل، أنا مريضة نفسية وهذا اسم طبيبي المعالج وهذا رقم هاتفه أرجوك أحضره إلى هنا فورًا ولا تعطِني منومًا أو مهدئًا أكثر من هذه الجرعة أرجوك، فأنا بحاجة للحديث معه، ولا تخبرهما شيئًا!"

قلت جُملتي وبدأت أشعر بتشنج يديّ وقدميّ، ظلت عظامي تتصلب حتى شعرت أنها تتكسّر، ظللت أصرخ من شدة التعب، كنت أصرخ من هول الموقف الذي وُضِعت فيه بالإجبار؛ أكثر من حاجتي للصراخ من تصلب عظامي!

انخفضت نسبة السكري في دمي، كما انخفض ضغطي جدًا، بدأت رؤيتي تضعف رويدًا رويدًا حتى تلاشى كل شيء من أمامي وذهبت في عالم آخر من رحمة ربي بي!

عدت لوعي بعد بضع ساعات..

وجدت طبيبي أمامي في انتظار إفاقتي، اعتدلت في جلستي حتى أستطيع لملمة نفسي وإنقاذ ما يمكنني انقاذه في حالتي النفسية ومصيري المجهول مع هذا الشيء الذي أنا على ذمته الآن!!

وبعد ساعتين؛ انصرف طبيبي بعدما نصحني بالرفض الصريح لهذا الفخ الذي أوقعني به أهلي بضمير مستتر وإلا ستزداد نفسيتي وصحتي سوءًا من الآن وصاعدًا، وعليّ إخبار خطيبي بالحقيقة، من أجلي أنا كي أهدأ وليس من أجلهم جميعًا، وهو غير مسؤول عن أي تطور سلبي سيحدث لي الفترة القادمة، وأن ضميره المهني والإنساني على حد سواء رافضين لكل هذا الهراء، كما طلب مني تحديد موعد جلسة مع أهلي بدوني، وكم هذه الجلسة ستُشكل فارقًا عظيمًا في طريق علاجي!! كما كتب لي روشتة بأسماء عقاقير مهدئة لأستمر عليها بعدما تحدث مع الطبيب المتابع لحالتي هنا كي يعرف أسماء الأدوية التي كتبها ويضمن أنها لن تتعارض مع علاجي النفسي. قبل أن ينصرف؛ لمحت دمعة هاربة مني في عينيه! يبدو أنني أثّرت سلبًا على نفسية طبيبي النفسي هههه! لا أدري مَن مِنا عليه احتواء الآخر الآن.

كم هو ساذج ذلك الطبيب الرائع! كيف يجرؤ أن يطلب طلب كهذا؟! أهلي؟؟ أهلي الذين لن يقتنعوا ولو بعد ألف سنة بمرضي الجسدي الذي يمكنهم رؤية أعراضه بوضوح؛ فكيف سيقتنعون بمرضي النفسي الغير

مرئي؟! وكيف سيقتنعون أن لديهم مشكلة بل مشاكل نفسية وخيمة مؤثرة بي لهذا الحد وعليهم الشروع في حلها؟!

ندمت أنني طلبت رؤيته، تُبْتُ، وبكيت، وعزمت على ألا أعود.

****

بعد ثلاثة أيام بلياليهن.. عدت لمنزلي "معه" بعدما دفع حساب المشفى من النقود المُختَلَسة من المظروف، وإذ به يميل على أذني:

"أرأيتِ؟ القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود!"

ليته لم يأتِ ليأخذني ويرفع ضغطي ويحرق روحي! ليته يخرس للأبد!!

وجدت أخي وقد اتصل بي عشرات المرات، فلما تعذّر عليَ إجابته؛ شعر بالقلق عليّ وقام بالاتصال بهاتف البيت فأجابته أختي ومع الأسف؛ أخبرَته بحالتي الصحية المتدهورة ولله الحمد أنها لم تدرك سبب تدهورها وإلا لوجدتُه أمامي تاركًا خلفه دَيْن صديقه لا يدري كيف سيسديه؟!

أول شيء فعلته بعدما قمت بالاتصال بأخي وطمأنته عليّ وأكدت له أننا سلّمنا النقود لأصحابها؛ دخلت "له" غرفته وطلبت منه باقي المبلغ على الأقل لأعيده لصديق أخي وأخفف عليه دَيْن يظن أنني انتفعت به، رفض إعطائي وكالعادة قام بالصراخ حتى جاءت "هي" وبدون فهم لأبعاد الموقف؛ جذبتني من شعري خارج غرفته إلى غرفتي لأنني عديمة تربية وبعد هذا العمر لازلت لا أدري كيف أحاور والديّ الكرام!

قلت لها: لقد سرق من المظروف أكثر من نصف المبلغ قبل إرساله، ألم تري كيف سخر منا هذا الأبله وأهله عندما حصر المال؟! لقد أعطيته **85** ألفًا وليس **40** كما رأيتِ هناك!! كوني منصفة ولو لمرة وحيدة قبل موتك،

ستقابلين وجه الله يومًا ما ورب الكعبة ولن أسامحك ولو بينك وبين الجنة شبر!!

تركت النقطة الأساسية كعادتها وأجابتني: كيف تجرئين أن تتهمي أباك بالسرقة يا عديمة الأدب والحياء!! أنتِ ومالك لأبيكِ! أبوك الذي تعب وصرف عليكم وقام بتربيتكم وتعليمكم؛ الآن صار سارقًا يا عديمة العقل!! وكالعادة لم تصدقني وصدقته، كالعادة نصرت الظلم على العدل..

ثم لطمتني لأنني قلتُ لن أسامحها.. ثُمَّ انصرفت وتركت شراييني تتصلب من شدة القهر.. تركتني لله يعاقبني لأنني عاقة ولن يسامحني على كل حال وأستحق كل ما يحدث لي من الآن وصاعدًا! وبدلًا من إسعافي؛ شمتت بي وصفقت باب غرفتي وانصرفت. ظلت أختي تراقبني بصمت وكأنها تشاهد فيلمَ رعبٍ! كنت أود أن أرى فائدة واحدة لأختي قبل أن ألقى وجه الله يومًا.

وبعدما مرت نوبتي.. استسلمت لنوم عميق في مكاني على الأرض، بتُّ لا أتحمل أي شيء ولو حتى أن تحمل قدماي جسدي النحيل!

وما إن استيقظت من شدة الصخب الذي اقتحم غرفتي -أناس لا يعلمون شيئًا عن الخصوصية، يدخلون ما راق لهم من الغرف بحجة العشم ووالله ماهو إلا غشم!- دخلت إلى الحمام فورًا دون إلقاء سلام ولا كلام! فتحت الماء ووقفت تحته أبكي حتى تصدَّع رأسي، وما إن لمحت شفرة حلاقته إلا

ونقشت ندوبًا جديدة على ذراعي الثاني دون أي تفكيرٍ أو شعورٍ بالألم على الأقل! يبدو أنني فقدت الإحساس كما فقدت حقي في التأوّه عندما يُفترَض أن أتألم!!

وكأنني أقوم بعمل واجب ما.. وكأن وعيي عاد إليّ لتوّه.. قمت بتطهير الجروح ثُمَّ لففتها بالمنشفة المبللة.. كل شيء يتم بالترتيب المسبق وكأنني أسير بخطة ما. يبدو أنني صرت خبيرة في نقش الندوب!!

نسيت تمامًا أنني ملتحقة بعمل من المفترض أن أكون هناك قبل خمس ساعات من الآن!! لماذا لم يرن منبه هاتفي؟ يبدو أنني لم أقُم بضبطه أصلًا! بالتأكيد لم يخطر ببالي أن أستغرق كل هذا الوقت في النوم وأنا التي تعاني من الأرق من صغرها، لكنها العقاقير المنومة وما يُجنَى منها..

عملي الحالي هو القمة في الإنسانية؛ رعاية الحيوانات الضالة في مسكن للإيواء: قطط وليدة منذ ساعات ولقد تركتهم أمهم ورحلت عن الدنيا بحادث سير أو ماتت مسمومة برغيف خبز قدمه لها أحدُ المارة ذوي القوالب المتحجرة في صدورهم عديمو الرحمة والإنسانية، أو عذّبها الأطفال حتى لاقت ربها، أو صغار كلاب لاقت أمهم نفس المصير، أو لازالت معهم لكنها غير قادرة على رعايتهم أو إرضاعهم، أو طيور سقطت أثناء طيرانها مكسورة الجناح أو الرقبة؛ فأعتني بها حتى تستطيع الطير مجددًا، ومنهم من يموت قبيل محاولة إنقاذه مع الأسف! وهكذا.. يتم التبرع لهذه الجمعية من ذوي القلوب الرحيمة؛ للطعام والعلاج، ثُمَّ عرضهم للتبني في بيوت

دافئة يستحقون العيش بها بعيدًا عن أذى شياطين الإنس -لإفساح مساحة لغيرهم من المساكين-

لكنني طلبت من الإدارة إبعادي تمامًا عن قسم العلاج والطوارئ حتى لا يتكرر موقفي السابق ولاسيما وأن حالتي تسوء يومًا بعد يوم وزادت رعشة يديّ ولم أستطع التحكم في الإمساك بأي شيء، بالكاد ألقي للطير الحبوب، وأضع صحون الطعام والماء للحيوانات بسرعة قبل أن تنزلق من يدي، وأنظف جروحهم وأقوم بتطهيرها قبل أن تتابعها الطبيبة البيطرية المسؤولة، رغم أنني خبيرة في تطبيبهم لكنني آثرت إفساح الطريق لها وحدها إلا من بعض النصائح التي أغدقها عليها أو الأمور التي تستشيرني بها من حين لآخر.. هذه مسؤولية عظيمة، إنها أرواح لا تستحق العذاب أبدًا؛ تمامًا كروحي.

عملي الذي يلقبونني أهلي به "خادمة البهائم"! وأنا أتشرف بخدمة أرواح بكماء صماء لا تستطيع البوح والتعبير عن حاجتها من جوع وعطش وعلاج للآلام، "خادمة البهائم" ولي الفخر بهذه المنحة الربانية التي ربما تكون هي المُنجية من عذاب الآخرة كما أنجتني من عذاب المكوث في البيت!

"خادمة البهائم" وكُلي رضا وسلام يمسحان على قلبي حتى يهدأ في كل مرة خرجت فيها من منزلهم وأنا أبكي قهرًا وظلمًا! نعم هو "منزلهم" ومنذ زمن

ليس بقريب! لا تربطني به أي علاقة لأنسب نفسي إليه! لولا كلام الناس لكنت استأجرت بيتًا أسميته "بيتي" بحق!

****

بدأت تظهر عليَّ أعراض الهَوَس؛ الخوف من كل شيء، خوف وقلق مبالغ فيهما وليس لهما أي سبب منطقي يدعى لذلك، عرفت فيما بعد أن الهَوَس عَرَض أساسي من أعراض الوسواس القهري!

أصبح لديّ شعور دائم بأنني سأموت صعقًا بالكهرباء؛ كلما اقتربت من مقبس الكهرباء وحاولت مثلًا شحن الهاتف أو تشغيل الراديو أو أي جهاز كهربائي؛ بأنه سيحدث ماسًا كهربائيًا وسأُصعَق وأموت في الحال!

الشيء ذاته في استخدام النار أو بمجرد دخولي للمطبخ واقترابي من الموقد؛ حتمًا سأنسى مفاتيحه مفتوحة وسيتسرب الغاز وسأموت مختنقة أو محروقة!

صار لديّ هَوَس طوال الوقت بالتأكد من إغلاق مفاتيح الموقد أكثر من خمس مرات، ثُمَّ التأكد من إغلاق مفتاح الغاز الرئيس طالما لا نستخدم الموقد، أو إغلاق مقابس الكهرباء أولًا بأول، قلق مبالغ فيه لدرجة جعلت الجميع يلحظ ذلك ويتهمني بالجنون بالطبع بعدما أنال نصيبي من التنمر!

عندما يرميك الناس بالجنون؛ لا تقاوم الفكرة لتُثبت لهم العكس، ولا تبرر أفعالك، فقط تحلّى بالصبر والهدوء، وعلى حين غفلة؛ أثبت لهم صحة اعتقادهم!

استسلمت لأفكاري! لأن عدم استسلامي يعني أنني سألجأ لطبيبي النفسي مجددًا، وبمجرد لجوئي إليه معناه أنه يريد عمل جلسات لأهلي لعلاج

المشاكل من جذورها كما قال، لكنه يا دكتور ضرب من ضروب من المستحيل! الطباع لن تتغير ولن تخرج من الإنسان سوى بخروج روحه من جسده، غير ذلك؛ من الهراء ومضيعة الوقت وحرق الطاقة بلا داعٍ أن تحاول تغيير طباع الناس كي تحيا معهم في أمان!

لقد اتفقت أعراض نوبات الهلع مع أعراض الهَوَس ووجدوا بيئة صالحة للتأقلم، فكانت النتيجة التي وصلت لها؛ هي اضطراب الشخصية الحِدّيّة! وكأنني حلقة في سلسلة الأمراض النفسية! أنفرط بالترتيب وأمُرّ بكل المراحل على حدة حتى سأسقط في الهاوية يومًا ما.

ومن ثُمَّ توقفت عن التفاعل مع الناس، وعن المشاركة في أي حوار سواء كان يخصّني أم لا، كما فقدت شغفي وزهدت في الحياة، وأهملت في نفسي وفي هندامي ونظافة غرفتي وحتى نظافتي الشخصية، قررت أن أستسلم وأتوقف عن تكرار المحاولة في كل شيء وإن كان تكرار اتصالي بأخي لأطمئن عليه وأطمئنه على نفسي!

كانت نفسي تتوق لأشياء وأطعمة معينة؛ بتُّ لا أطيقها، والعكس؛ ما كنت لا أطيقه يومًا؛ بتُّ أفعله كأنني لست أنا! أصبحت أتكلم بأسلوب غريب عني تمامًا وأتفوّه بكلام لا يمت إلى قناعاتي بِصِلة، أنطق بكلام مفاجئ حتى لم يخطر ببالي! كأنني أُصبتُ بالفصام؛ شخصية تتحدث وتتصرف، وأخرى تقبع بداخلها تتعجب من حديثها وأفعالها!!

فضّلتُ الصمت والانعزال ولاسيما بعد تركي للعمل.. وبعد سوء معاملتهما ووصولي لهذه المرحلة؛ اندهشوا من قسوتي وجمودي ومن عدم تفاعلي بالجلوس معهم وبالحديث والخدمة ودفع الفواتير!.

صِرتُ أرى الآخرين بمنظور المؤامرة وسوء الظن وأن جميعهم ليسوا أهلًا للثقة، كما صِرتُ بليدة ضعيفة أرضخ للإهانة والطاعة العمياء ولا أحرك ساكنًا.. يبدو أنني ورثت "طبعهما"! بينما كنت أرفض تصرفاتهما؛ كنت أتشرّبها حتى أصبحتُ أُشْبِه ملامحهما تمامًا بدون وعي، وأنني سرتُ على دربهما بعدما كنت أصارع الجميع حتى نفسي كي أسير في عكس الاتجاه. هكذا أصبحتُ -أخيرًا- ابنة بارّة!.

باتت روحي العجوز مختبئة في جسد سقيم مليء بالأمراض.. كلما كانت النفسية غير منضبطة؛ ضعُفَ جهاز المناعة وكان الجسد في عُرضة لتلقّي الأمراض بكافة أنواعها، حتى الدورة الشهرية أصبحت مضطربة ولا تزورني في مواعيدها الطبيعية بل أصبحت تأتيني كل أربعة عشر يومًا من تاريخ نهايتها، وبعدما كانت تستمر ثلاث أيام؛ بات استمرارها من ستة إلى سبعة أيام؛ مما أدى إلى إطالة فترة تغيير هرموناتي وتعكير مزاجي وتكثيف اكتئابي وعصبيتي للشهر كله، بات الانهيار العصبي صديقي الصدوق الذي لا يتركني أبدًا تمامًا مثل "الشقيقة"!

كنت أستمع إلى حكايات صديقاتي في فترات حيضهن؛ أن أمهاتهن وآباءهن -أحدهما أو كلاهما- يقومون بتكثيف احتوائهن وعناقهن ومعاملتهن

بلُطف مبالغ فيه، وتقديم إليهن المشروبات الساخنة وعمل كمادات دافئة فوق بطونهن كي يمر أول يومين بسلام ولا يقومون بطلب أي شيء منهن في هذه الفترة لمراعاة تغيير مزاجهن.

كُنّ يَقُلن أنّ احتوائهن طوال الشهر عاديًا لكنه يزداد فترة الحيض وما قبله بأيام، وأن هذا الاحتواء يجعل الأمر يمر بسهولة.

يعزّ عليَّ جدًا أن أستمع لقصص واقعية عن المعاملة الطيبة دون أن أعيشها! أن تكون علاقتي بتلك المعاملة؛ فقط أن أنصت إليها في الحكايات الواقعية التي لا تنتمي إليّ أو الحواديت الخيالية!

لازلت أحاول التغلب على الأرق بالعقاقير المُنوّمة دون جدوى؛ ما إن تسير المادة الفعّالة له في دمي وأستسلم للنوم، إلا وتزورني كوابيسي التي تجعلني أفيق بفزع يجلب لي الصداع مجددًا! وهذا ما جعلني طوال اليوم أشعر بالنعاس والخمول وضعف الهمة والنشاط واستحالة التركيز في أبسط الأشياء.

****

عندما وقع في قلبي شعور الرعب من فكرة سفر أخي ولا سيما أنه سفر أشبه بالهجرة ولا يمكنه العودة في أي وقت شئناه؛ عوّضتُ غيابه باتخاذ قرار متهور بالاستسلام لزواج يوحي من بدايته أنه فاشل، ولاسيما أنني فشلت في الحصول على الحب والزواج من شخص يفهمني ويحبني وأبادله الحب -ربما لو كنت وجدته حتى لو لم تكتمل حكايتنا؛ لَمَا وصلت لِما وصلت إليه، لكن يبدو أنني أجذب إليّ الحمقى والمتعجرفين وأُطوّق نفسي بهم آملة أن تستمر علاقتي بهم بشكل مختلف- فلذلك رأيت فكرة المقاومة والرفض مستحيلة.

ثم نوبة هلعي التي باتت تتكرر بسبب وبدون سبب وانفصالي التام عن الواقع لبضع ساعات بعدما كانت بضع دقائق!، ثُمَّ شعوري الدائم بعدم الاستحقاق وشعوري بالخزي والعار ويقيني بأنني شخصية سيئة ولا أستحق الخير أبدًا، حتى إن وجدت معاملة حسنة من أحد زملائي سواء في عملي السابق أو الحالي أو أي موقف نبيل يحدث من قِبل أحد أفراد عائلتي؛ أحاول رد الجَميل بسرعة ليقيني أنهم ما فعلوا ذلك إلا عطفًا وشفقة وليس لأنني أستحق فعلًا. ثُمَّ تهوّري باتخاذ قرار تركي لعمل ثابت مضمون أشعر به بالراحة التامة والألفة والصحبة الصالحة والراتب المجزي والمواعيد المناسبة ومدى قربه من البيت؛ لمجرد حادثة بسيطة كنت فيها أحد أسباب وفاة حيوان ولم أكن السبب الوحيد كما ظننت، أعترف أنه تصرف طائش لكن الأوان قد فات!

ثم أذى نفسي كحل بديل عن الانتحار؛ لتنفيس شعور الغضب والرفض بسلوك خاطئ وحرام؛ أعلم أنه سيسألني الله يومًا عن تفريطي في حق نفسي عليّ ولا أدري بماذا أجيب؟ لكنني لم أرَ ذلك أثناء نقش الندوب، لم أرى سوى أنني أستحق ما يُفعَل بي!

من الحماقة أن تنتظر أن تُعامَل بنفس معاملتك! أن تكون رحيمًا أكثر من اللازم فتتوقع الرحمة؛ فتتلقى صفعة على وجهك تفقدك سمعك إلى الأبد!

أو أن تضغط على أعصابك جُلّ الوقت كي لا تُحمّلهم ما لا طاقة لهم به، وربما تتقاسم معهم أحزانهم لتخفف عنهم؛ وإذ فجأة تجد نفسك جالسًا على كرسي الاتهام بالأنانية!! مفارقات عجيبة يا عزيزي أرجو ألا تأبه بها كي لا يقودك تفكيرك إلى الجنون يومًا!

....

الأذى النفسي الذي سببه الأهل؛ جعل نظرتي للعلاقات مشوّهة، هناك جوع عاطفي لابد أن يُسدّ بأي طريقة حتى ولو كانت خاطئة، لكنه كذب حلو ولو كان مؤقتًا، ورغم ذلك لم أحصل عليه!

التنشئة الجافة الحادة؛ إما تُهيّئ المرء للدخول في أي علاقة مهما كان فشلها واضحًا وضوح الشمس من بدايتها -المهم أن يحصل على الدعم والاهتمام والحب وإن كان زائفًا- وإما تُهيّئه للرهبانية والاعتكاف عن إنشاء أي علاقة مهما بدت ناجحة وسويّة؛ إلا أنه فقد الثقة والأمان فيمن حوله دون

استثناء وبات غير صالح للعلاقات، ويجعل التعميم السيئ مبدأه للحفاظ على ما تبقى من آدميته بعدما دمّرها الأهل!!

في هذه الفترة اضطريت للاستعداد نفسيًا لانتقالي من بيتهم إلى بيته!

كلما حاولت مساعدتها في المطبخ؛ تراودني أفكاري القهرية، ورغم ذلك حاولت تجاهلها والتغلب عليها، ثُمَّ أجدها تبدأ في الصراخ والاعتراض على طريقة تحضير كل وجبة وكأنني أطبخ لأول مرة في حياتي! أحاول الانصياع لأوامرها كي أتقي شرها لكن دون جدوى! هي تأمرني بالشيء وتنهاني عنه في اللحظة ذاتها؛

-هيا بسرعة قطعي البصل لشرائح ثُمَّ الثوم ثُمَّ اخلطيهم مع عصير الطماطم ثُمَّ ضعي البهارات ثُمَّ ضعي اللحم والخضار. اتركي ما في يديك فورًا واذهبي لتنظيف الغرف من سهرة أمس. ألم أقل لكِ قطعي البصل والثوم لماذا تركتيني الآن!! لماذا تضعين البهارات بعد عصير الطماطم هي توضع قبله مباشرة بعد البصل والثوم!! لماذا لم تنظفي الغرف؟! منذ متى ونحن نضع اللحم والخضار معًا في نفس الإناء!!!

وعندما يحتد الصراع بيننا تطردني خارج المطبخ لأنني سيدة منزل فاشلة لن أستطيع إدارة منزل وسيقومون بإرجاعي مطلقة بعد زفافي بيومين على الأكثر!! إن كنت فاشلة في تحضير وجبة فماذا سأفعل في تلبية طلبات زوجي ورعاية أطفالي؟! بئس التربية أنا.

-هيا اذهبي لإحضار الخضار والسمك واللحم والجبن من السوق. من قال لكِ أننا بحاجة إلى السمك في هذا الأسبوع؟!! أين التوابل؟

_أنتِ طلبتِ مني السمك ولم تطلبي توابل، لقد دوّنتُ كل ما طلبته في هذه الورقة لئلا أنسى شيئًا!

-أنتِ غبية لم تنتبهي لما أطلبه منك! جئتِ بأشياء غير التي طلبتها وبأسعار باهظة! كيف سأبتاع ما نحتاج إذًا؟ تحمّلي إذًا نتيجة خطئك وعدم تركيزك وادفعي ثمنهم من جيبك، فنحن لا نمتلك بنكا ولا نجد النقود في الطرقات!، منذ أن وُلدتِ وأنتِ عديمة التركيز والقيمة! عوّض عليّ يا ربي!

منذ متى تُقاس قيمة الإنسان بما يُقدمه لأهله؟

لم أناقشها.. حاولت ألا أحاول معها كثيرًا، وأن أمارس عقوقها بضمير مرتاح وألا أمد لها يد المساعدة أبدًا حتى موعد الزفاف مهما حصل لن أُسلّمها ذمام نوبة هلعي تعبث بها ما تشاء!

حينئذ ظلت تطلب مني فعل أشياء كثيرة وأنا أتجاهلها تمامًا حتى يئست مني، ظلت تصول وتجول أمامي متظاهرة بالتعب طوال الوقت وإن كانت تهاتف أحد أقاربنا أو جيراننا وهي تضحك بصوت عالٍ؛ ما إن ترى وجهي إلا وتدّعي الإرهاق!، تروح وهي تئن، وتغدو وهي تتأوّه لتشعرني بالذنب أكثر، لكنني فقدت الشعور تمامًا فعلًا.

لم أكن أحتاج في هذه الحياة سوى أب حنون وأم سعيدة كي أكون إنسانة سويّة خالية من الأمراض النفسية، ربما لو كنت وجدت الحضن الدافئ

والإنصات الكافي والكلمة الطيبة؛ ما كنت فكّرت يومًا في الانتحار مثلًا، الأمر ليس مستحيلًا لهذه الدرجة! عليك أن تعانق إنسان كل يوم وتنصت إليه وتحترم آدميّته لتكون سببًا في حياته، ومن أحياه فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ هل الأمر صعب لهذه الدرجة؟! الفرق بين (الحياة) و (التظاهر بها)؛ فقط عناق؟! ما أقسى بعضنا على بعض!!

هناك أشخاص كُثُر لا يعلمون الفرق بين الحزن والاكتئاب!

الحزن: هو تفاعل طبيعي يحدث لكل الناس نتيجة للأحداث التي يتعرضون لها على عكس رغباتهم وعادة ما ينتهي حزنهم بمرور الوقت أو مع زوال السبب، مثلًا؛ هناك شخص فقد محفظة نقوده، فشعر بالغضب والحزن الشديد وبدأ يبحث عنها في كل مكان كان يسير به حتى أكرمه الله ووجدها، فزال حزنه تمامًا كأنه لم يكن.

لكن الاكتئاب: مرض نفسي له أعراض معينة إن استمرت لمدة لا تقل عن أسبوعين وتستمر لشهور وربما سنوات؛ لابد أن نجزم حينها أنه مريض اكتئاب وليس حزينًا!

المكتئب ليس بالضرورة أن يستسلم للنوم في فراشه، وإنما يمارس كل تفاصيل حياته لكن بفقدان شغفه وطاقته!

الحزن لا يقوم بتعطيل مسيرة الحياة ويمكن للإنسان أن يهزمه بنفسه ما إن يبتاع حذاء جديدًا أو ملابس أو هاتفًا أو يتجول مع أصدقائه أو يفعل أشياء يحبها أو يغير روتين أيامه ويتعلم مهارات جديدة، لكن الاكتئاب

يُعطل الحياة والمكتئب لا يستطيع مساعدة نفسه معظم الوقت خاصة لو أنه مصاب باكتئاب حاد مثلي وعنده كل الأعراض التي ذكرتها والتي زادت بالتدريج؛ حينها المكتئب يحتاج إلى تدخل طبي وعلاج كيميائي وجلسات كلامية فورًا قبل تعقيد حالته التي تؤدي إلى صعوبة إنقاذه. لكنني حقًا غير قادرة على العلاج وحدي ولست المريضة الحقيقية أصلًا!

الحزين يتكلم عن مشاكله مع أهله وأصدقائه المُقرّبين مثلًا، ويحاول إيجاد حلول لها، أما المكتئب فيرفض الحديث عن مشكلاته تمامًا أو يتحدث عنها باختصار دون الخوض في أدق التفاصيل التي ستساعده غالبًا في علاجه. لذلك آثرت الصمت من زمن بعيد!

للاكتئاب أسباب كثيرة، أهمها: أن يكون اكتئابًا بالجينيات الوراثية؛ الشخص المكتئب في عُرضة لإنجاب أبناء أو أحفاد مصابين بالاكتئاب كما أثبتت الدراسات العلمية. أيعقل أن يكون أحدهما مكتئبًا وأنا ورثت منه الاكتئاب؟!

أو تغيير كيمياء الدماغ؛ المخ عبارة عن ملايين الخلايا العصبية المتصلة ببعضها لفعل تأثير معين، فمثلًا كي تحرك عضو في جسدك يقوم مركز الإرادة بالتواصل مع مركز حركة هذا العضو في المخ، ثُمَّ يعطي أمرًا للخلايا للتنفيذ وهذا يحدث في جزء من الثانية، المخ يحوي الآلاف من مراكز المشاعر والتفكير والمزاج والتركيز وغيرها من الوظائف وبين كل خلية وأخرى؛ هناك مسافة دقيقة جدًا تسير فيها المواد الكيميائة لفعل تأثير

المشاعر مثل الفرح والخوف والقلق وهكذا، ويختلف التأثير باختلاف المادة الكيميائية وكميتها والخلايا المُرسِلة أو المُستقبِلة لها، فالمادة الكيميائية الخاصة بالحزن تختلف عن الخاصة بالفرح وهكذا، كما أثبتت الدراسات الحديثة أنه ليس هناك مركز واحد للمزاج، وإنما هي مجموعة من المراكز التي تتصل ببعضها فتُشكِّل المزاج العام أو الحالة الشعورية، من أهم هذه المواد الكيميائية؛ مادة السيروتونين والدوبامين، وأي اضطراب يحدث في نسبة هذه المواد؛ يسبب التغيّرات المزاجية وهي التي تسبب الأمراض النفسية. وهذا ما حدث معي كما قال طبيبي في أحد الجلسات!

من أهم أسباب الاكتئاب أيضًا؛ المشكلات والصدمات النفسية التي يتعرض لها الإنسان وطريقة تفاعله معهما، لأن استقبال الناس لهما يختلف من شخص لآخر حسب قناعاته وطريقة تفكيره وطبيعة شخصيته وصموده النفسي، فمن الممكن جدًا أن يتعرض شخص ما لمشكلة بسيطة تمر عليه مرور الكرام، بينما يتعرض لها شخص آخر؛ فتصيبه بالاكتئاب! وهذا من أهم أسباب اكتئابي.

والمشكلات الاجتماعية مثل الطلاق، انتهاء علاقة عاطفية، الفقر، البطالة، أو التعرض للقهر والظلم، التغيّرات الهرمونية للفتيات والسيدات ولاسيما في فترات الحيض والنفاس، وهناك بعض الأمراض العضوية تسبب الاكتئاب؛ كأمراض الكبد، خمول الغدة الدرقية، كسور العظام التي تستدعي البقاء في المنزل مدة طويلة، وبعض الأمراض الجلدية؛ كالبهاق -

التي تزعزع الثقة بالنفس خشية مواجهة المجتمع وخشية التنمر مثلًا-، والسرطانات المختلفة، أو تناول المخدرات والخمور؛ لأنها تؤثر على القدرات العقلية تأثيرًا مباشرًا، كما أنه هناك أشخاص يكونون أكثر عُرضة للإصابة بالاكتئاب عن غيرهم مثل؛ الشخصية الحدّية التي تتصف بكثرة تقلّباتها المزاجية، والشخصية الانطوائية.

كما أخبرني طبيبي أن مريض الاكتئاب يحتاج للدعم النفسي لكن هناك أشخاص يظنون أنهم يدعمونه لكنهم في الحقيقة يزيدون من معاناته بدون قصد!!

لابد أن أشعر بصدق تواجده بجانبي وأنه في غاية الاستعداد أن ينصت إليّ وأن يكون واعيًا بمدى أهمية إنصاته لتفريغ حزني التراكمي ويساعدني حتى الخروج من أزمتي بسلام، ولابد أن يوقن تمامًا قبل الحديث معي؛ أنه مُهيأ نفسيًا ومُؤهّل لعلاجي وعلى أتمّ الاستعداد أن يستقبل أحزاني لتتعامل معها بحكمة دون أن تخرجَ من حدودي وتدخلَ حدوده! لابد أن يكون لديه الوعي الكافي للفصل لئلا يقع فريسة لمشاعري السلبية، ويكن سببًا في تعافيّ بينما أكن أنا سببًا في مرضه بالاكتئاب!! لذلك آثرت الكتمان عن أخي لئلا أحمله ما لا يطيق.

أما عن الآخرين؛ على الرفيق أن يقترح عليه الذهاب معه لطبيب نفسي بعدما يقوم بالتمهيد له عن أهمية التدخل الطبي والعلاج الكيميائي للحد من أي نكسة نفسية تراود أكثر المصابين بالاكتئاب الذين يرفضون الذهاب للمختصّين، لابد أن يبتعد تمامًا عن إلقاء اللوم عليه أو نقده وعتابه على أي شيء قام بفعله، هو ليس جاهلًا بالصواب والخطأ وإنما حدث له اضطراب ما؛ كان السبب في تغيّر أفكاره، وما عليه فعله سوى أن يساعده على استخراج تلك الأفكار من داخله دون الضغط والإلحاح عليه، طالما قرر أن يساعده؛ إذ وجب عليه التحلّي بالصبر.

حذارِ أن يتهمه بأنه المسؤول الوحيد عما يحدث له وأنه ضعيف مستسلم للمرض؛ لأنه بذلك سيتحول من شخص يساعده إلى شخص قرر أن يقف في صفوف الذين كانوا السبب في مرضه دون أن يدري! وحذارِ أن يفقد الثقة فيه لأنه سيكرهه مثلهم وسيتجاهل نصائحه مهما حاول مساعدته؛ سيضرب بمحاولاته عرض الحائط! لابد أن يؤمن بصدقه عندما يتحدث عن عجزه، يكفي أن يخبره أنه سيظل بجانبه وجاهزًا لمساعدته في أي وقت شاء. وأن يتجنب اتهامه بضعف الإيمان؛ لأنه ليس شرطًا أبدًا أن يكون هذا سبب اكتئابه، بدليل؛ أن هناك الكثير من ضعاف الإيمان والملحدين يحيون حياة طبيعية خالية من الاكتئاب، صحيح أن الإيمان بالله يؤثر في النفس تأثيرًا إيجابيًا ويساعد الإنسان على مواجهة صعوبات الحياة بشكل سليم، لكن الاكتئاب مرض كأي مرض عضوي يصيب الجسد ويحتاج

إلى علاج وتدخل طبي وليس حالة مزاجية عابرة! وكلما تم اكتشافه مبكرًا؛ سيسهل إنقاذ المريض أسرع طالما تم التعامل معه بحكمة ووعي أكبر. لابد ألا يشعره بأنه يئس منه، ليكن صبورًا هادئًا، وحازمًا عند الحاجة فقط.

كما يمكن مساعدته في نشاطاته اليومية وإبعاد عنه في هذه الفترة أي مهمة تُشكّل ضغطًا عليه، هو في هذه الحالة يكون عاجزًا على أن يحيا حياة بسيطة ويقوم بمهامه العادية؛ ليس لديه طاقة للكلام العادي أو للابتسام! يُجاهد نفسه ويُصارع كي يقوم من فراشه أو يُصفّف شعره -بدون مبالغة- فما ظنك بالضغوط المعقدة التي تُعسِّر عليه الحياة؟! فلابد أن يتفهّم مشاعره وألا يسخر من آلامه ولو على سبيل المزاح كي لا يحصل منه على نتيجة عكسية! لأن مشكلته الأسياسية حينها تكمن في شعوره بالوحدة والغربة بغض النظر عن عدد الناس من حوله، هو يشعر فقط بأنه لا أحد يفهمه وكأنه يصرخ في مجتمع أصمّ، أو يتكلم بلُغة غير التي يفهمها الناس!.

حذارِ أن يشعر أنه يُشفَق عليه أو يفتعل اهتمامه به ليقضي الواجب نحوه، وأن تعاطفه معه ليس حقيقيًا.. فليكن صادقًا معه منذ البداية أو يتركه لطبيب نفسي لئلا يزيد من معاناته وبالتالي سيصعب علاجه.

لا بأس أن يضعه أحيانًا أمام الأمر الواقع ويجبره على الخروج من عُزلته، بتجمُّع عائلي أو زيارة أصدقائه المُقربين، السفر في رحلة مع أشخاص يحبهم، حضور مناسبة أو حفلة ما، المهم أن يجمعه بأشخاص يحبونه فعلًا ويحبهم، لا أشخاص يزيدون من معاناته، لأن مريض الاكتئاب بإمكانه

الدخول بسهولة في دائرة الاستسلام والكسل وإن تُرِك على هواه؛ سيظل مُمَدّدًا في فراشه! أهم شيء أن يفاجئه من حين لآخر لكن يبتعد تمامًا عن الضغط والإلحاح عليه.

وليفكّر جيدًا من خلال معرفته به وقوة علاقتهما ما هي لغة حُبّه؟ لكل شخص لغة حب معينة فمن الأفضل أن يكون على علم بها كي يدخل له من هذا المدخل ويساعده بوعي؛ إما جلب الهدايا له -الأشياء التي يهتم بها وليست اهتمامات الشخص المساعد!.

قضاء أكبر وقت معه ومشاركته في عمل ما أو الإنصات وحسب.

كلمات التشجيع له؛ سواء في إحصاء صفاته الحسنة ومزاياه وأخلاقه أو مهاراته أو تذكيره بمدى اجتهاده وإخلاصه في مجال عمله.

الأعمال الخدمية؛ أن يقوم بخدمته في شيء ما إن كانت هذه من لغات حبه.

وإما بالاتصال البدني؛ إن كان باللمس والهدهدة والعناق، وإن كان\ت الزوج\ة فليكثر\فلتكثر من العلاقة الجنسية في هذه الفترة -بشرط لو كانت هذه لغة حبه\ها-.

المكتئب لا يكتئب دفعة واحدة كما يظن الناس بل بتدريج يتم تجاهله من قِبل المريض ومَن حوله! ولا يكتئب مرة واحدة طويلة بل على نوبات منقسمة؛ إن لم يُعالِج نوبته الأولى بجدية وكفاءة عند مختصّ، ستتكرر بصورة أسوأ. بعض المكتئبين يظنون أحيانًا أنهم ما إن يشعروا لأيام أنهم بحالة نفسية جيدة؛ أنهم بذلك تخلّصوا تمامًا من الاكتئاب! وهذا غير

صحيح أبدًا، بل إن النوبة الأولى قد تنحّت جانبًا، استعدادًا للنوبة الثانية الأقوى وهكذا!

قررت ألا أتخذ أي قرار في حياتي لأنني على أية حال لا أقوى على المقاومة ولن يُؤخَذ برأيي وكأن الموضوع لا يخصّني أبدًا، فاستسلمت كريشة في مهب الرياح تذروها كما شاءت!

فحددوا موعد عُرسي، وحصلوا على الذهب والمهر والقائمة؛ ضمنوا كل حقوقهم باختصار -نعم حقوقهم وليس حقي- وعلّقوا الزينات وعلت أصواتهم بالزغاريد!

بدأا يعاملاني بأفضل معاملة وبلُطف مبالغ فيه! فمنذ هذه اللحظة وقد أصبحتُ الدجاجة التي ستبيض لهما بيضة ذهبية عند مطلع كل شهر كما يظنا!

يناديان عليّ باسم الدلع الذي أسمعه لأول مرة "جيجي"! في أول مرة لم أجِبهما باعتبار أنهما يقصدان بالنداء "جميلة" ابنة عمي التي كانت تقيم عندنا في هذا الوقت!

بتُّ في حيرة؛ هل أفرح للتغير الإيجابي؟ أم أحزن لأنه جاء متأخرًا، أم أغضب لأن خلفه سببًا دنيئًا؟!

عندما أعتاد سماع الكلمة الخبيثة طوال الوقت؛ من الصعب تصديق الكلمة الطيبة من الشخص ذاته! حينها أقع تحت وطأة الصراع الشديد بين تصديقها والفرح بها وغفران كل ما فات على إثرها، وبين خشية الوثوق من جديد لئلا أعود لنقطة الصفر مجددًا وأجد نفسي أسيرة سذاجتي وسوء ظني بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأخيرًا ستلتئم جروح الماضي؛ لكن ينتهي بي المطاف أن كل شيء ثابت لم ولن يتغير سوى للأسوأ، وأن الثبات على الطباع والقناعات أقوى من الثبات على الدين!

كانت "هي" تسألني في كل مرة أستعد للنزول لشراء شيء ما: هل تريدين شيئًا؟ معك نقود كافية؟

وعندما أجيبها: نعم معي، ولا أريد شيئًا.. تتظاهر بالحزن والغضب!

لماذا لا تطلبين منا ما تحتاجين؟ هل سنمنع عنكِ شيئًا؟ منذ متى ونحن نبخل عليكِ بشيء؟! اطلبي ما شئتِ!

وكأنني أحاور أحدًا غيرها! وكأنها تتحدث عن أحد غيره!! كأنني مشهد في فيلم سخيف!

منذ متى وأنتِ حنونة لهذا الحد؟ منذ متى وهو كريم جواد لهذه الدرجة؟!

كيف لليد التي مُدَّت بالضرب والأخذ لسنوات؛ أن يأتي عليها يومًا وتُمَدّ بالعطاء والهدهدة!! كيف أجني الثمر والزهر من أرض بور؟!

أحقًّا تشعران بالحزن لأنني لم أخبركما أنني بحاجة إلى مساعدة مادية أو معنوية؟ منذ متى وأنت "أبي" الذي يتوجب عليّ حبه واحترامه ليس لأنك

أبي وحسب بل لأنك تحمل همي ومسؤوليتي وكنت ولازلت ظهري وحمايتي؟ منذ متى وأنتِ أمي التي تحتويني وتشعرني بين ذراعيها بالحنان والأمان والدفء الذي سمعت عنهم كثيرًا وكنت أتمنى أن أشعر بهم بعيدًا عن أخي!

ما البرهان على تلك الألقاب؟!

****

قُضي الأمر.. جاء يوم الزفاف!

هاتفني أخي بالصوت والصورة ليبارك لي زواجي ويعتذر لي عن عدم استطاعته بالحضور، لقد شعر بالرعب عندما رآني لأول مرة منذ شهرين تقريبًا..

-جود! ماذا بكِ يا فتاة؟ لقد خسرتِ الكثير من وزنك، تغيرت ملامحك كثيرًا، يبدو عليكِ الإرهاق كثيرًا، هل حدث لكِ شيئًا لم تخبريني به؟ أقسمت عليكِ بالله هل أنت على ما يرام؟ قلبي يخبرني أنكِ لستِ بخير!!

-مهلًا يا حبيبي فلتهدأ، أنا بخير ولله الحمد، فقط إرهاق بسبب تجهيزات الزفاف كما تعلم، إنها حياة جديدة مقبلة عليها وقلبي وعقلي لا يهدأان أبدًا، كما أنني لم أعرف خطيبي عن قرب، كلها مؤثرات فلا تقلق كل شيء على ما يرام.

-أأنتِ متأكدة من موافقتك على هذا الشخص؟ أم أنك بحاجة للهروب من أجواء البيت بأي ثمن؟!

-أيعقل أن أعالج خطأ بخطأ أكبر؟

-لكن ما سبب شعوري بعدم راحتك؟ منذ متى وشعوري بكِ كاذب؟ حبيبتي نحن مازلنا على الشاطئ في أمان، إن كنتِ تريدين التراجع عن قرارك -وإن كنت أشك أنه قرارك وحدك!- فأنا الداعم الوحيد لكِ، تراجعي ولا تقبلي على حياة مجهولة وغير مريحة، وسنعيد التفكير في طريقة أخرى لخروجك من البيت دون ندم على الأقل!.

-اسمعني حبيبي، أولًا هو قراري لا تخف، ثانيًا هل هناك متسع في الوقت والمزيد من العمر لأعيد التفكير على مهل؟ ألا تريد أن تصبح "خالًا" لأطفالي؟ كما أنه يعاملني بلُطف ولم أرَ منه ما يعيبه حتى الآن، لكن ما يقلقني أنه شخص غريب لم أعرفه من قبل وفترة الخطوبة كانت قصيرة فلم أعتَد عليه بعد، لكن بالتأكيد سأعتاد عليه وأحبه وسأنجب منه طفلًا يشبهك على قدر حبي وعشقي لك يا نور العين.

خانتني عبرة وجرت على خدي مما لفت انتباهه

-أرأيتِ؟ أنتِ زفافك اليوم وتبكين؟ من المفترض أن تكوني سعيدة!

-سعيدة يا حبيبي، لكن سعادتي ناقصة بعدم وجودك بجانبي كما كنت أتخيل منذ صغرنا هذا اليوم وأنت ستكون حولي في كل مكان أذهبه وستأخذني من يدي تسلمني لزوجي وتوصيه بي، لكنني أُقدّر أن الأمر خارج عن إرادتك فبذلك أصبر قلبي حتى تعود سالمًا في أقرب وقت.

-يا حبة القلب أعدك أن أكون أمام عينيكِ في أول فرصة أستطيع فيها أخذ إجازة طويلة وسنقضيها معًا إن شاء الله قريبًا جدًا.

شعرت أنها المرة الأخيرة التي سأسمع فيها صوته، ولا أدري لماذا! ثُمَّ نفضت الفكرة المرعبة من رأسي وذهبت إلى صالون التجميل لأستعد..

انتهيت فلم يأتِ ليأخذني في الموعد المحدد، حاولت الاتصال به فلم يجِبني! وفوجئت بعد ساعة ونصف من الانتظار أنّ أخاه وأمه جاءا ليأخذاني إلى

قاعة الأفراح وسيكون هو في انتظاري! بدأت أشعر بأعراض الذبحة الصدرية التي لا أدري ما هي، لكنني أيقنت حينها أنها هي!!

وصلنا فلم أجده عند الباب في استقبالي كما ظننت وخاب ظني كالعادة، بداية غير مبشرة، لقد غلى الدم في عروقي لكن احتفظت بهدوئي وطلبت من أخيه أن يناديه ليأخذني وندخل معًا، كيف سأدخل على الناس وحدي بلا عريس؟! هل بي عيب ما لا سمح الله وسيتزوجني شفقة وإحسانًا؟ بالتأكيد ستثرثر الأفواه كلها عني ولن يُحسن أحدهم الظن بي كما يحسنوه دومًا بالرجال! أقل شيء سيتوقّعوه أن هناك خصامًا ما بيني وبينه!

لكنه أفجعني بالرد؛ أخي غير موجود بالداخل لقد ذهب لإحضار المأذون لأنه ضل الطريق ولذلك طلب منا أن نحضرك!

-ألا يوجد غير العريس ليحضر المأذون؟! مَن أولى بإحضاره؛ أنا أم المأذون؟! لقد اتفقنا أن نذهب للتصوير بعد الخروج من الصالون مباشرة، ثُمَّ سنذهب إلى القاعة! لقد تأخر الوقت كثيرًا. صرتُ أحدث نفسي كالمجانين!

طلب مني أن أتأبطه فندخل معًا على سبيل الفكاهة ونحاول تضييع الوقت حتى يحضر!

قلت أحضر لي أبي أو أخي الكبير هما سيقومان بالأمر وإلا سأظل هنا في انتظاره وندخل معًا، حاولت أن أقوم بتعجيله بالاتصال لكنه أيضًا لم يجِبني مما زاد توتري! أين ذهب؟ لقد هرب؟! سيهرب الآن؟!!

أين أنت يا أخي؟ ليتك هنا الآن، بالتأكيد كنت ستفكر بحكمة وستتصرف بشكل لائق يرضيني ويجلب لي حقي الذي بدأ يضيع من الآن!

فقطع تفكيري وصول سيارته التي لم تُزَيّن بعد! هل استأجر سيارة أخرى مزينة لزفافي أم أنها فكرة لم تخطر بباله؟! ظللت أجول ببصري سريعًا للبحث عن السيارة المزينة بالأزهار واللمبات الصغيرة المضيئة فلم أجد شيئًا!

تأبّط ذراعي دون تعليقٍ أو إبداء أي غزل لطلّتي، أو على الأقل اعتذارًا على ما فعله الآن! جرت على خدي دمعة غيظ وقهر لكن مسحتها بسرعة قبل أن يلاحظها أحد..

في الوقت الذي يتحتم عليّ فيه أن أتراقص من فرط الفرح؛ تغمرني دوامة من الأحزان وتلف بي الذكريات حتى تبتلعني بداخلها ويتعسّر عليّ النجاة منها!! بينما أتهيأ للسعادة كي تأتيني بكامل أناقتي؛ يخترقني البؤس من كل الاتجاهات حتى تفشل كل محاولاتي في التجاوز وأسقط في غياهب الاكتئاب!

حان عقد القران..

لقد أعطاني المأذون العقد كي أوقّع عليه بالموافقة..

تذكرت كلمة أخي عن التراجع طالما الأمر غير مريح، كان كل الحق معه، هي حياة كاملة وليست يومين فقط وسأعود! هي مجرد كلمة أنطقها الآن ستفتح في وجهي أبواب الجحيم كما يبدو، والرفض كلمة أيضًا لكنها ستحميني من العيش في وحل أكثر من الذي أعيش فيه، لكنني لم أجرؤ على النطق بها! تذكرت أنني سأعود مجددًا لأهلي وكأن شيئًا لم يكن، بعدما كنت أصبّر نفسي وأتحمل كل شيء في تلك الفترة لأنني أوشكت على تركهم، ماذا عليّ أن أفعل؟ أأكتب اسمي وأوافق لربما تكون حياة هادئة كريمة ويكون ما حدث اليوم مجرد ظرفٍ طارئ خارجٍ عن إرادته، أم أنه فعلًا شخص متعجرف مغرور ولن يهتم بي وكانت تلك هي إشارة ربانية لأتراجع عن قراري أو بالأحرى "قرارهم"، لكن طالما بداخلي رفض قاطع لماذا انتظرت لهذه اللحظة لأعلنه؟ قُضي الأمر.. لن أجلب العار لي ولأهلي ولن أدع الناس يتوقعون سبب انسحابي في هذا الوقت بالذات والسبب سيكون واحدًا؛ "العروس ليست عذراء" لا يوجد سبب غيره سيطرق أذهانهم!

أفقت من شرودي عندما مزح المأذون مع الشهود بأنني أفكر في الأمر جديًا وأنني أفكر بالانسحاب، لا يدري أن مزحته جادة جدًا!

فوقّعت بالموافقة، فعلت أصوات الزغاريد والمباركات، رفيقتي كانت معي فعانقتني وباركت لي، ثُمَّ عانقني "هو" ومن ثُمَّ "هي" بدورها حتى يظهرا بشكل لائق على خشبة المسرح الهزلي التي تُمثَّل مشاهده الآن!

وأخيرًا قبّلني زوجي عند ناصيتي فازدات الزغاريد والصفير وكأنهم يلهمون القاعة بالحماس كي نبهرهم أكثر!

تأبطني وقال بخبث: مبارك عليكِ أنا يا عروس!

وكأنني لا أدعو للفخر أبدًا كي أكون مباركة عليه أيضًا!!

-الوقت صار متأخرًا لن نستطيع التصوير سنذهب إلى البيت مباشرة.

كان يأمرني بلا انتظار رد مني وكأنه يعلم ويوقن كيف أصبحت شخصيتي الجديدة، ومدى سهولة السبيل إلى السيطرة عليّ!

كأن هناك حبلًا يطوّق جيدي ويخنقني، وكأنها لعنة توقيعي بالموافقة؛ هكذا بدأ القدر يعاقبني!

وصلنا إلى البيت..

ودعني أهلي كالغرباء وانصرفوا..

ما إن صعدنا للطابق الخاص بنا وفتح الباب إلا ونظر لي بابتسامة غير مريحة أبدًا لكنه كان لطيفًا معي وأخذ بيدي إلى غرفتي، ما رأيك في الشقة لقد نالت إعجابك صحيح؟

أومأت بالموافقة بصمت.. وهو لم يكن ينتظر موافقتي أو رفضي أصلًا.

سألته لماذا لم ترسل أحدًا غيرك للمأذون وتأتي لتأخذني من الصالون إلى القاعة؟

أجابني: شششششش ليس وقته هذا الحديث! في هذه الليلة هناك الكثير من الأشياء لنفعلها وبالتأكيد هي أهم من هذا الموضوع، هيا لن نضيع الوقت في التفاهات!

فسحبني من يدي إلى حمام الغرفة لأبدل فستاني وأعطاني قميصًا شفافًا جدًا لأرتديه وقام بصفق الباب.

حينئذ شعرت بالندم على الموافقة! كما شعرت بالاشتياق لأخي.. فبكيت! لكنه القرار الذي لن يجدي بعده البكاء والندم؛ كنت قبل ساعة "مخطوبة" يمكنني الفسخ بلا أي مسؤوليات، أما الآن ففسخ العقد يكتبني "مُطلّقة" للأبد وستنهال فوقي الأقاويل.

حينها قررت أن أتحمل أي شيء سيحدث لي هنا ولن أعود لأهلي مُطلقة مهما حصل!

ما إن قمت بتبديل فستاني إلا ونظرت على الندوب!! كيف نسيت أمرها؟ بماذا أجيبه إن سألني عنها؟ حتمًا سيراها!!

جلست على الأرض أفكر كيف لم يخطر ببالي هذا الموقف من قبل؟ ربما لأنني كنت أرتدي ملابس بأكمام طويلة طوال الوقت فلم يقع نظري عليها، وكنت أستحم بسرعة كي لا أشغل الحمام وقتًا طويلًا لئلا تقع سماء بيتنا على أرضه، فلم يتسع الوقت للتركيز معها! الآن الآن ماذا أفعل؟!

فكرت أن أستخدم "كريم أساس" لتوحيد لون جلد ذراعيّ ولإخفاء الندوب، فكانت فكرة موفقة جدًا، لكنها ستجدي اليوم، فهل ستجدي كل يوم؟!

طرق الباب لاستعجالي فأنجزت عملي بسرعة قدر المستطاع وخرجت..

فاقترب مني، كان على وشك أن يُقبّلني، فابتعدت عنه..

-ألن نصلي ركعتين وندعو الله ونأكل التمر ونشرب الحليب؟!

فاقترب مجددًا، ثُمَّ دفعني إلى الفراش..

-نعم نعم سنفعل كل هذه الأشياء غدًا في الصباح بالتأكيد!

وفي الصباح..

استيقظت وجدته واقفًا بجواري يفعل شيئًا ما.. فمسحت النوم عن عينيّ وسألته ماذا تفعل بهاتفي؟

-كسرت شريحتك ووضعت لك خطًا جديدًا، أنت الآن زوجتي، فيجب أن تتخلي تمامًا عن حياتك عندما كنتِ فتاة، وبالمناسبة لقد رأيت بجوارك في القاعة فتاة لم يرتَح لها قلبي، فلن تستمر علاقتك بها للعلم، والآن ستهاتفي أهلك لتخبريهم بالرقم الجديد وتؤجلي زيارتهم فلسنا بحاجة إلى إزعاج الآن!

سمعتُ وأطعت!

وبعد يومين عاد إلى عمله..

ثم بدأت ألاحظ طباعه وأتعرف عليه يومًا بعد يوم، لاحظت شُحّه في ماله ومشاعره، وبأنه لا يهتم سوى بالطعام والنوم وعلاقتنا الحميمة، ويهتم بغذائي وتسميني لأنه لا يحب النحيفات -لا أدري لماذا تقدم لخطبتي منذ البداية وكان ومازال جسدي نحيفًا-! وبنعومة جسدي ومن ثُمَّ يجلب لي الكريمات المرطبة للبشرة كلما أوشكت على النفاد، لأن في جمالي مصلحة له أيضًا، فقط لا غير! لا أدري متى سيعاملني أحدهم معاملة آدمية؟ متى سيُهتَم بي لأجلي وليس من أجلهم؟! متى سأُعامَل غير معاملة الجواري؟ بالإضافة أنه يريدني كفتاة ليل وليست زوجة وحسب؛ يرى مشاهد لا أدري متى وأين وكيف؟ ويحاول تمثيلها أمامي كي أفهمها وأفعلها ليستمتع

بلياليٍ هانئة! لكن متى سأستمتع أنا؟! كنت كلما رفضت فعل شيء ما مهما كان يؤلمني أو أشمئز منه؛ جذبني من شعري وانهال عليّ بالسب والضرب حتى أفعله غصبًا، ثُمَّ استسلمت لطاعته خشية غضب ربي عليّ وألا تلعنني الملائكة! يبدو أنني أصبحت نسخة "عنها" تمامًا.

أين ذهب جوده وكرمه الذي رأيتهما في فترة الخطوبة إذًا؟ أم لم يكن سوى طُعمٍ لاصطياد فريسته وكسب رضا أهلها!!

لقد أرغمني على خدمة أهله رغم أنه لم يخبرني عن هذا الأمر في الخطوبة، وما كان مني سوى السمع والطاعة؛ كنت أستيقظ فجرًا أجهز فطوره وملابسه وأودعه ليذهب إلى عمله، ثُمَّ يبدأ يومي الشاق المؤبد؛ أنزل شقتهم وأرتبها وأمسح الأرضيات يوميًا، ثُمَّ أنظف المطبخ وأغسل صحون عشاء أمس قبلما أجهز الفطور وأطهو غداء اليوم، ثُمَّ أصنع الحلويات والعصائر ثُمَّ أعيد تنظيف المطبخ بعد الغداء ومن ثُمَّ يأتي زوجي ونصعد معا لشقتنا، أجهز له غداءه فيأكل ويجذبني إلى الفراش، ثُمَّ ينام وهكذا بنفس الروتين كل يوم!

وبعد 45 يومًا.. جاء أهلي!

قالوا: اشتقنا إليكِ!!

هناك من يقول "اشتقت إليك" لم يقصد الاشتياق بالمعنى الحرفي، وإنما يعني أنه اشتاق لسيطرته عليك، لإهانتك وإذلالك وتخوينك، اشتاق لجلوسك أمامه على مقعد الاتهام، ولاضطرارك للتبرير والقسم على شرفك وعفتك وبراءتك من كل إثم، اشتاق لنظرة القهر التي كان يراها في عينيك ولرائحة احتراق روحك التي كان يشمها منك بعد كل خلاف بينكما، ما اشتاق إلا لرؤية تأثيره السلبي عليك!!

كدت أن أشكو زوجي لأهلي فرأيتهم غير مستعدين للسماع أبدًا.

قال "هو": أتشكين وأنت لم تكملي شهرين معه؟ لكن ماذا أنت فاعلة بعد عام أو عامين؟

فقالت"هي": أنتِ في نعمة كبيرة يجب أن تحمدي ربك وتشكريه عليها في اليوم مائة مرة، انظري حولك لتتذكري أين كنتِ وأين أصبحتِ، صحيح من لم يرَ من الغربال صار أعمى!!

فقال "ابنهم": اتركوها للبطر، ستخرب على نفسها حياتها وستندم يومًا لن ينفع فيه الندم، هي الآن نائمة على ريش النعام ولا تشعر بقيمة العز الذي تتنعّم فيه، لكن يبدو أنها بحاجة إلى المبيت ليلة في فراشها الخشن وقضاء

يومًا في غرفتها الصغيرة لتُقبّل كفّها وكفّيّ زوجها وقدميه تقديرًا للنعم التي لا تُقدّرها!

حتى أختي نطقت: هنيئًا لكِ، ليتني أعيش مكانك هنا، بالتأكيد لن أتمنى أكثر من أن أحيا حياة كحياتك!

بعدما انصرفوا.. جاء زوجي من عمله وعندما لم يجدني عند أهله علم أن أهلي جاؤوا فاستأذنتُ أمه وصعدت معهم!

لا أدري ما الذنب الذي فعلته ليقيم عليّ الحد؟! لقد انهال عليّ بالضرب والسب لأنني سمحت لهم بالزيارة دون الرجوع إليه! واستقبلتهم في شقته وليس في شقة أهله، وبذلك كان اللقاء سرّيًّا وأنني أحكي لهم أسرار بيتي!

أنكرت وبكيت وظللت أرجوه ليترك شعري ويرحمني لكن دون جدوى!

جذبني منه إلى غرفتي! وتركني وصفق الباب خلفه بالمزلاج وانصرف، ظللت أبكي حتى استسلمت للنوم في مكاني على الأرض مثلما وضعني!

ثم استيقظت وجدته واقفًا بجواري يناديني للفراش!

قمت واغتسلت ولبّيت نداءه، لكنني نسيت تمامًا أن أعيد وضع "كريم الأساس" على ندوبي بعد الاستحمام!!

-ما هذه الخطوط المنقوشة على جسمك؟

- (توترت جدًا لكنني حاولت كبح جماح خوفي، ثُمَّ ابتلعت ريقي بصعوبة وأجبته) لا شيء، تقريبًا هي من آثار رسم حناء الزفاف! كانت إجابتي ساذجة جدًا لكن لم يخطر ببالي غيرها!!

-أي حناء التي ستستمر منذ الزفاف حتى اليوم؟!

فاقترب ومسك ذراعي الأيسر وبدأ يتفحّصه، ثُمَّ بدأ يدور حولي ليُفتّش عن نقوشٍ أخرى، وما إن وصل نظره لذراعي الأيمن إلا وجذبني من شعري بسرعة

-ما هذا؟ من الذي شرّحك هكذا؟ أأهلك على علم بالأمر؟ لقد خدعوني وألقوا لي بجسد مُشوّه! لماذا لم تُخبريني بأنك مُشوّهة! من الذي فعل بكِ هكذا؟ وما علاقتك به؟ ولماذا شوّهك؟ أكنتِ على علاقة به قبلي أم لازلت تقابلينه حتى الآن يا ابنة العاهرة؟!! جعل يضربني حتى زارتني نوبتي؛ وهذه كانت نوبتي الرابعة منذ أن تزوجت لكن صادفت في كل مرة أن تحدث لي وأنا وحدي أو وهو نائم! كنت أنزف من فمي جرّاء ضربه لوجهي، وما إن فقدت وعيي إلا واستغاث بأهله! لم يشعر بالخجل نيابة عني! كيف يخبرهم بأمر ندوبي؟ وبأنه ضربني ضربًا مبرحًا لهذا الحد؟ كيف سمح لهم بالدخول وأنا بملابس النوم الشفافة؟!

لقد اتصل بطبيب العائلة ليسعفني، ولم يخطر ببال أحدهم أن يسترني بمتر قماش!!

ما إن عاد إليّ وعيي إلا سألني ماذا حدث لي؟ وهل الأمر يتكرر أم أنها أول مرة ولاسيما أنهم أخبروه بتشنجاتي قبل الإغماء. فطلبت من الطبيب أن أتحدث معه على انفراد، قلت: أنا أعاني من نوبة هلع واكتئاب حاد وبعض

الأمراض وكنت أراجع طبيبًا نفسيًا لكنني لم أستمر على علاجه وجلساته، أرجوك ألا تخبرهم، ساعدني لأن زوجي يؤذيني ويزيد من معاناتي!

وعدني بأنه سيساعدني وانصرف..

ما إن أُغلِق باب غرفتي إلا وفُتِحَ كاشفًا عن وجه زوجي الغاضب!

-أتشتكي للطبيب مني؟ أأنا أقوم بإيذائك؟! وأنتِ عندما أخفيتِ عني أمراضك النفسية ونقوش جسدك ألم تؤذيني؟!! ألم يؤذيني أهلك عندما أخفوا عني حقيقتك؟!! أأنتم عصابة مجرمة أم في أي فخ وقعتُ؟!! صحيح لقد زوجوكِ لثريّ مُغفّل، باعوكِ بجواليّ خضروات وفواكه يذهبان لبيتهم كل شهر منذ أن رأيت وجهك الأسود!! منذ قليل اكتشفت نقوشك والآن جنونك، ماذا أخفيتِ عني أيضًا اعترفي بسرعة؟ مَن الذي كان سيقبل بالزواج من عانس بليدة ضعيفة مستسلمة كالميّتة غيري؟! لقد أكل أهلك الطُّعم قبل أن ألقي بِسِنّارتي! أنا أخذتك منهم بحقيبة ملابسك يا ابنة الشّحّاذين! مَن الذي كان سيقبل الزواج منك بملاليم كالتي دفعوها على مضض وكأنهم امتلكوا بها الكون بقبضتهم!!

لقد أصابني الخرس من هول الصدمات التي تباغتني واحدة تلو الأخرى، كنت أخاطب في الطبيب ضميره المهني، لكنه خذلني وفضح سري! كنت أريد الرد والدفاع عن نفسي بكل الحقائق التي أخفيتها عنه؛ لكنني أيقنت أن ليس لها أي جدوى، تحدثت أو صمتُ؛ سواء!.

لقد اكتفيت بالنظر إلى اللاشيء وشرعت دموعي في السقوط بلا توقف، وبدون إبداء أي ملامح على وجهي كأنني دمية!

-ألن تتكلمي؟! حسنًا.. قسمًا بمن رفع السماء بلا عمد سأُريكم الجحيم على وجه الأرض!!

في هذه اللحظة بالذات كان أخي يحاول الاتصال بي -كنت أهاتفه من حين لآخر سرًا كأنني أتحدث مع عشيقي الذي أخشى أن يسمعه زوجي!!-، لكنني كنت مُقيّدة بحبل غليظ كالذي كُنتُ أُقيَّد به في صغري، ولم أستطع إجابته لأستغيث به أخيرًا، سأخبره بكل شيء، ليس سواه سينقذني! بدأت أنظر إلى سقف الغرفة وأحدث الله:

أأنت ترى كل هذا ولا تحرك ساكنًا؟ أيرضيك كل هذا الظلم الواقع فوق رأسي دون رحمة؟! أين جبروتك وعدلك وشدة عقابك لهم؟ أين رحمتك بي؟! لقد أنقذتَني من ظلم أهلي لتُكافئني بظلم زوجي؟! لماذا تفعل معي هكذا؟ ما الخطيئة التي ارتكبتها لتعاقبني عليها؟ هل لأنني تسببت في موت القطة؟ لا! لأنني أُعاقَب منذ صغري وحتى الآن!

قلتَ اصبروا على البلاء؛ لكن ماذا بعد انتهاء مخزون الصبر؟

قلتَ أنّ أقرب الناس منك بعد الأنبياء هم الصابرين على البلاء؛ فلأي حد ستختبر صبري؟!

لقد توقفت منذ أعوام عن الصلاة والدعاء لك لأنني أيقنت أنك لا تحب سماعي وإذا سمعتَني لن تجيب ولم أدرِ ما السبب! أعلم أنها مصيبة كبيرة

أن أتوقف عن العبادة لكن ما السبيل إليك وطريقك مسدود في وجهي ولا توجد به أي إشارة تؤكد لي بها أنني سائرة على الدرب الصحيح، وأنني سأصل يومًا ما لابتغاء مرضاتك! لقد أبليتَني بوالدين لم يرضيا عني قط مهما فعلتُ؛ كنت ابنة عاقة، حتى صرتَ مثلهما لن ترضى وترفع عني الأذى مهما فعلتُ من الخير! في حين أنني لم أؤذِ نملة بل على العكس كنت أرحم الحيوان قبل الإنسان لكنك قررتَ تجاهلي تمامًا وكتابة اسمي في قائمة العاقّين لآبائهم! سمعت شكواهم مني ولم تسمع مني؟! لماذا أعطيتهم السُلطة وسمحت لهم بإيذائي وتدميري لمجرد أنهما كانا السبب في وجودي ولم تسمح لي بمنع الأذى عن نفسي؟ بل كتبتَني عاقّة! كالعادة سأحادثك ولن تسمعني وبالتالي لن تجيب؛ فلن أنتظر! أعلم أنني المغضوب عليها منذ بداية الخلق وحتى تقوم الساعة، لقد كتبت بعضهم من السعداء وقررتَ أن تكتبني من الأشقياء؟ حسنًا.. لذلك استسلمتُ لشقائي وقررتُ ألا أحاول. أرضيتَ بذلك عني أم لازلتَ تراني لست أهلًا لا لرضا الرب ولا رضا الوالدين؟!

****

بينما كنتُ أعاتب الله؛ كان زوجي العزيز يعاقب أهلي الكرام على الهدية الفاسدة التي أهدوها إليه! لقد "سبّها" وقام بضربها أمامه و"هو" لم يحرك ساكنًا! و"أجبره" على التوقيع على شيكٍ قيمته أكثر من **10** ملايين جنيه، وأقسم أنه سيزجّ به في السجن في أقرب وقت، فقط عليه أن ينتظر!

ثم ذهب إلى ابنهما ولكمه في وجهه بعدما قضى على سيارته تمامًا قُبيْل الصعود إليه، ثُمَّ قام بتكسير كل ما وقع تحت يده في بيته، ولأنه أجبن من أن يدافع عن بيته ويمنع عن أسرته الأذى -تمامًا مثل أبيه-؛ وقف يشاهده في ذهول، ثُمَّ أغلق خلفه ما تبقى من الباب؛ بعدما وعده بأن سيقوم بتشويه سُمعته وبالتالي فصله من البنك الذي يعمل به منذ سنوات وسيستغل مكانته ومنصبه في القضاء عليه، حتى لن يجد قرشًا واحدًا ليسُدَّ ديْن أبيه وأمه اللذين سيضطران للشحاذة من الغريب قبل القريب - كعادتهما- لئلا ينتهي بأحدهما المطاف بالسجن والآخر بالجنون، ثُمَّ الموت قهرًا!

ثم عاد إليَّ ليُنفّذ حُكم إعدامي!..

صدق مَن قال: "وقوع البلاء خير من انتظاره"، لقد مُت في كل ساعة ألف مرة وأنا أنتظر قدومه ليُكمل عقابي والانتقام مني؛ المهم أن يأتي بسرعة ويرحمني من عقلي!

لقد فك قيودي أخيرًا، ثُمَّ حملني بعدما قام بلَفّ مناشف حول خصري كي لا تبتل ملابسه من آثار بوْلي الذي تسرّب دون إرادة مني؛ فلقد تُركت لأكثر من أربع ساعات مُقيّدة دون رحمة! لم أفكر في وجهتي الآن مثلما فكّرت بمشهد مشابه لهذا المشهد مَرّ عليه أكثر من ثمانية أعوام!؛

أمرني "هو" بتلبية طلب صديق له مولع بتربية الكلاب والقطط والأسماك والسلاحف، جاءني في مقر عملي بشرط ألا أطلب منه مقابلًا ماديًا لمشترياته، كان يظن أن إدارة المحل ستعفيني من الدفع لأنه جاء من طرفي! لكنني بالطبع دفعت فاتورته التي تعدّت الثلاث آلاف جنيه من راتبي الذي سيخصمه مني مديري تقسيطًا على ثلاث دفعات بداية من راتب الشهر الجاري حينها! قبلت بقهر على مضض وكنت أظنه مجرد موقف لن يتكرر؛ وخاب ظني بالتأكيد!! ذهبتُ "إليه" أخبره بأنني لست مضطرة لدفع حساب لم أستفِد منه، وأن صديقه بإمكانه الشراء من أي محل آخر وحينها سيدفع مقابل طلباته الكثيرة جدًا عن الحد الطبيعي لمُربي عادي وليس تاجرًا! إنه يتعمد أخذ كل ما هو ذو ماركة أصلية من طعام ومستلزمات وحتى الأدوية يسحبها بكميات كبيرة وأنا على يقين أنه لم يكن بحاجة لكل تلك المشتريات لكنه يستغل الفرصة أنها مجانية!! علمتُ حينها أن معظم أصدقائه على نفس شاكلته؛ مستعدون أخذ الأكسجين الذي أتنفسه دون مقابل لمجرد "أنه" يُحدّثهم عن كرمي وكأنني صاحبة العمل ولست مجرد موظفة يُخصَم من راتبها الذي يكون مصروفًا أصلًا من قبل قبضه!!

وحينما اعترضتُ للمرة الثانية على التوالي؛ قيّدني، كما ساعدته "هي" بجلب الحبل الغليظ وقاما بإلقائي في الظلام تحت مكتبي الذي كنت أذاكر عليه وقت دراستي، وأوصّدت باب غرفتي بالمزلاج من الخارج وتركتني أصارع الجوع والعطش والبرد في أحد ليالي ديسمبر -غير مبالية بما سيحدث لي عندما أظل لأكثر من ست ساعات بملابس مبتلة- ثُمَّ جاءتني بعدما استيقظَت من نومها الهانئ؛ تُعنّفني وتسبّني لأنني لم أتماسك وقمتُ بفعلتي القذرة كعادتي، ثُمَّ بدأت تنهال عليّ بالشتائم والتنمر لأنني كنت أفعلها على الفراش حتى كبرتُ!

ما إن فقت من غفلتي حتى وجدت أنني مُلقاة هنا على هذا الفراش الأبيض في الغرفة البيضاء!!

كنت أتساءل في البداية: هل أخي يسأل عني؟ مَن يُجيب على اتصالاته وبماذا يُجيب على سؤاله عن مكاني؟ أو لماذا لا أجيب على اتصالاته؟ ربما كان هاتفي مغلقًا؟ ألم يشُكّ بالأمر؟ هل يتصل بأختي لتوافيه بالتقارير المُفصّلة أم أنها تخبره بالأخبار التافهة فقط؟ هل سيطلب إجازة أخيرًا ويعود للبحث عني بعدما يؤدّب زوجي ويعلم منه مكاني؟! بالتأكيد عاد من سفره وبدأ بالبحث عني وأوشك على الوصول.

هل أخبرهم زوجي العزيز بما فعله بي حتى انتهى بي المطاف إلى هنا؟ هل أصلًا قاموا بالسؤال عني؟ ربما سألوا عني لأنقذهم من دفع قيمة الشيك أو

أن أقوم بتقبيل قدميّ ورأس زوجي كي يتنازل عن قضيته التي رفعها ضده؛ أنه اقترض منه المبلغ وحان وقت السداد وبدأ يتهرب من الدفع! هل ما زال زوجي أصلًا أم قام بتطليقي غيبًا؟! أم ذهب ليبحث عني أمام الجيران كي يتبرأ مني خفية لكنه يواري فعلته؟!

عفوًا يا أهلي لن أستطيع السداد، إنه شيك بالملايين وليس فاتورة الغاز والكهرباء! غير أنكما تستحقان تمامًا أن يضرب الله ظلمكما بظالم مثلكما! ورغم ذلك أراه قليلًا جدًا مقارنة بما تستحقان فعلًا.

لازلت ملفوفة حول نفسي مُتّخذة وضع الجنين وكأنني مصممة على دفن وجعي بداخلي وألا أستجيب للعلاج الكلامي أو الكيميائي!

لازلت أخاطب نفسي ولا أجيب عليها، أنهال عليها بالأسئلة التي ليس لها أجوبة!

أعلم أن الله يضع الإنسان تحت وطأة ضغوط معينة كي يختبر قوة إيمانه ومدى صبره، لأنه يعد له مكانة في الفردوس الأعلى من الجنة وقبله نعيمًا في الدنيا؛ ولن يصل لهاتين الدرجتين إلا باكتمال صبره وإيمانه، لكنني لم أعد قادرة على الصبر حتى يحكم في أمري ويكتب نهاية حياتي بالطريقة التي يراها لائقة وفي التوقيت الذي يناسبه!

كنت أظن أن "ما فات من الذكريات؛ قد مات" كما يُقال!! لكنها والله لم ولن تموت حتى نتحلل ونتعفن ثُمَّ نموت! الماضي يظل مختبئًا بين ثنايا الفؤاد ينظر للواقع -على استحياء- من خلال الروح، يظل مختبئًا وكأنه

ميت وقد مُحِيَ من الذاكرة تمامًا، لكنه يرقد ههنا في القلب والعقل والمشاعر وفي كل شيء!! يظل العقل الباطن يجبر العقل الواعي ويُخيّل له أنه مَحَا كل الذكريات السلبية، لكنه في الحقيقة مكتظ بها؛ لدرجة أنه يفقد ذاكرة الحاضر ويستسلم لنسيان أهم التفاصيل ويُشتّت انتباهه ليس لسبب سوى أنه مكتظ بذكريات قد عفا عليها الزمن يظن أنها قد ماتت لكنها ورب الكعبة هنا حيّة وبكامل وعيها!!

كاذب مَن قال أنّ كل جروح الطفولة ستندمل مع الوقت وزيادة العمر؛ ولاسيما الجروح الغائرة التي سبّبها الوالدين، ربما كل الجروح ستندمل عداها! كلما كبر الإنسان وازداد نضجًا ووعيًا وتجرَّع من الحياة حكمة، ربما تزوج وأنجب وزوّج أبنائه وأنجبوا وصار جَدًّا؛ لكنه لايزال يذكر جروح طفولته ولايزال يتحسس أثرها في أعماق فؤاده ويشم رائحة حريق روحه المشتعلة حتى تلك اللحظة وقلبه لم ولن يهدأ أبدًا!

حاولت أن أسامحهم على كل خطيئة ارتكبوها في حقي، ليس لأنهم يستحقون الغفران بل من أجل عيشي بسلام! كنت أحاول وأنا أتناول وجباتي، وأنا في عز انشغالي في عملي، وأنا مع أخي، وأنا مع أصدقائي، وأنا أستحم، حتى وأنا أنقش الندوب في جسدي؛ لكنني فشلت في كل محاولاتي، أقسم أنني كنت صادقة في كل المحاولات، لكن الأمر كان لا يتم؛ تمامًا ككلمة سر خاطئة لبريد إلكتروني! حاولت أن أسامح، أغفر، أعفو، وأصفح وأجري على الله لكنني رسبت في كل الاختبارات! الأمر كان يشبه المستحيل

فعلًا؛ لا يحتاج إلى إنسان عادي ليصفح بسهولة وينتهي الأمر، بل كان بحاجة إلى قلب نبيّ معصوم كي يصل لتلك الدرجة من السلام النفسي والصفح الجميل دون إرادة لمثقال ذرّة من انتقام ولو في النفس وليس فيهم!! ربما أنني كنت سأغفر فعلًا إذا رأيت عليهم ولو علامة واحدة من علامات الندم عما بدر منهم ولو كانوا على فراش الموت وتأخروا كثيرًا؛ لكنني كنت سأصفح عنهم ورب الكعبة، لكنهم تمادوا ولم يفعلوا؛ فلم أفعل.

عزائي الوحيد أن الله لا يغفر ذنب الظلم الواقع من العبد على العبد، بل لابد أن يغفر العبد للعبد كي يغفر له الله وأنا قد قررت أن أتوقف عن المحاولة وأتنازل عن حقي في عدم الصفح ولن أغفر وأجري على الله!.

كان جُلّ اندهاشي من نفسي: كيف لإنسان فاقد لأبجدية الاستمتاع بالحياة؛ أن يهب الحياة والأمان والحب والمساعدة لكل الكائنات التي تعامل معها، رغم أنه غير قادر على أن يهبهم لذاته!! ربما لأن فاقد الشيء أحيانًا يُعطيه!.

عانيْت من أعراض كثيرة لا أذكرها الآن، لكنني أذكر عَرَضًا واحدًا فقط: نقص حاد في هرمون الأكسيتوسين؛ إنه تفاعل كيميائيّ يفرزه الدماغ عندما تقوم الأم بتقبيل طفلها وتنشئ علاقة خاصة به تحتوي على الحب والثقة والهدوء النفسي، فينتج عنه مشاعر المودة والارتباط! عندما يغيب الحب؛ تضعف خلايا الدماغ حتى تموت بسبب إهمال الدائرة المُقرّبة للطفل لأنها تعتبر أول وأهم تأثير فيه، فيصاب الطفل بالتبلد العاطفي وهذا

يُمهّد لظهور سمات الشخصية السيكوباتية والمُعاديّة لمجتمعها الصغير، ثُمَّ المجتمع الكبير، هذا القمع العاطفي أحد أهم عوامل ظهور التوحّد؛ حيث يتم برمجة الدماغ على اتجاه معين ونمط واحد فقط لا يتعرّف على غيره طوال حياته. فهذه النتيجة من المفترض أن تكون متوقعة ولا سبيل للدهشة منها!.

فإذا وجدتَ حصادك جافًا مليئًا بالسموم؛ فتذكر زرعتك كيف أهملتها وآذيتها؟!

كما قال "جون لوك": يتساءل الآباء لماذا تحمل مياه القنوات طعمًا مُرًّا؛ وهم بأنفسهم مَن سمموا النبع!.

لا أقصد أبدًا أن أفقد إيماني، لكنني وصلت إلى الدرجة التي ينتهي عندها كل يقين، ويحل محله الشكّ في كل شيء! هل أشكّ بأن الله مُطّلع عليّ ويراني الآن؟! لا أقصد أبدًا التّبجّح وعدم التأدّب مع الله حاشا لله وأستغفره.

جعلتُ أفكر في كل ما فات مجددًا، أضحك تارة وأبكي أخرى، حتى تساءلت لماذا أمهلني الله لهذه اللحظة دون أن يمن عليّ بالرحمة؟ ألا أستحقها لهذا الحد؟ هل يريد أن يراني أتعذّب مدة أطول؟! حسنًا.. إن كنت تراني وتسمعني فهيا انهِ هذه المهزلة أرجوك قبلما أتدخلُ وأُنهيها بطريقتي! جعلت أضحك بهيستيريا دون وعي، ثُمَّ أبكي وأصرخ وكالعادة لا حياة هنا لمن تنادي!

حركت قدميّ أخيرًا من بعد سبات دام طويلًا، يبدو أنني مصابة بتيبّس العضلات إثر انعدام الحركة، حركت ذراعيّ؛ لازالا يشعران بالخدر الذي رافقني منذ سنوات دون انقطاع حتى اعتدت عليه. قمت كالسكرانة المترنحة أسير ببطء كطفلة تجرّب المشي للمرة الأولى وتخشى الانزلاق!

سرت بثبات قدر المستطاع، اقتربت من حمام العنبر، دخلت بهدوء، أكاد أفتح عينيّ فلا أستطيع من شدة الإضاءة هنا، وأنا أعتاد الدخول بعدما أتأكد من إطفاء كل المصابيح حتى لا أصاب بالعمى إثر التعرض مباشرة للإضاءة.

فتحت دولاب أدوات المرضين لأبحث عنها، نعم ها هي، لقد وجدتها بسهولة، إنها تعرف طريقي تمامًا كما أعرف طريقها! ربما بذلك يبعث لي الله إشارة ليُؤكد لي أنه يسمعني؟ نعم بالطبع، لقد قررَ أن يرحمني أخيرًا ويخطّ كلمة النهاية لتلك المهزلة!

سحبت شفرة حلاقة أحدهم، لا لن أنقش ندوبًا جديدة، لقد ملّ جلدي مني! الآن سيهنأ أخيرًا بنعمة الراحة!

سامحني يا أخي يا قرة عيني.. أنا أحبك ورب الكعبة، لكنك تأخرت كثيرًا، إن وجدتني فعانقني كثيرًا أرجوك لأنني اشتقت إليك جدًا جدًا أكثر مما تتخيل.

فقطعت معصمي بسرعة وشطرته نصفين، فحلّ الظلام.

يبدو أن أحدهم أشفق على عينيّ وأغلق المصابيح! أيُعقل؟ هل هناك مَن يشعر بإحدى مُعاناتي؟ حسنًا.. أنا قادمة.

تمت بحمد الله.

1 أكتوبر 2021

****

وجب عليّ التنويه أنها أحداث مستوحاة من قصص حقيقية لكن تم تجميع أهم أسباب الاضطراب النفسي من أكثر من حالة، بالتأكيد لن يحدث كل تلك المعاناة للحالة ذاتها؛ حاشا لله. لكن العامل المشترك بينهم جميعًا؛ كان الوالدان.

....

رجاء لكل الآباء والأمهات.. انظروا لأبنائكم بعين الرحمة، أشبعوهم حبًا لا مشروط وحنانًا مضمونًا مهما عفا الزمن بقسوته عليكم، كونوا أنتم الدعم ولو كان المصدر الوحيد، لا تدعوهم يبحثوا عن هذه المشاعر ويسرقوها خلسة كأنهم لا يستحقوها وأنتم تعلمون أنهم يستحقون تمامًا مثلكم! لا تضطروهم للهرب من نيرانكم إلى جحيم العلاقات ظنًا منهم أنها النجاة!

....

أنتم بشر؛ ومن صفات ابن آدم أنه يخطئ ويتوب ويعود للخطأ ومن ثُمَّ يجدد توبته، فاسمحوا لأبنائكم بالخطأ فأنتم لستم آلهة ولا أنبياء، ولا هم آبالسة رجيمة! أرجوكم خذوا كل كلمة في هذه الرواية على محمل الجد، لأنكم ببساطة لا تدركون فيمَ يفكر أبنائكم وعلامَ ينوون؟! في كل ساعة ينتحر آلاف الأبناء بسبب ضغط الأهل ولكنكم لا تتّعظون ولا تتوقفون عن الأذى ولا تعترفون بأخطائكم في التربية وبالتالي لن تعتذروا عنها

أبدًا. على الأقل لن تتطبّعوا بطبع جديد إيجابيّ يحميهم من الأمراض النفسية أو يضمن لكم الجنة بعد رحمة الله!.

يؤسفني أن أغلبية القراء ما هم سوى ضحايا مثل "جود" وإخوتها، بينما المرضى الحقيقيون؛ لا يقرؤون، وإذا قرؤوا؛ لا يُدركون أنهم المعنيون بهذه المادة! لازال الجُناة مُصرّين أنهم قاموا بواجباتهم على الوجه الذي يُرضي الله ولم يُقصّروا أبدًا، بل إنهم ضحايا مغبونون لأبنائهم العاقّين.

....

للأمانة العلمية: مصدر معلومة الفرق بين الحزن والاكتئاب؛ كتاب الكلب الأسود.

وبعض المعلومات الخاصة بالأمراض النفسية: موقع ويكيبيديا.

****

السيرة الذاتية للكاتبة

الاسم: الزهراء درويش

مواليد **18** ديسمبر **1992**

البلد: مصر

المؤهل الدراسي: معهد دراسات إسلامية والآن طالبة في كلية آداب علم النفس جامعة القاهرة.

أعمل مُعلمة في رياض الأطفال منذ عام **2010** وحتى الآن

بدأت بالكتابة في سن صغيرة وقبل دخولي المرحلة الابتدائية، ثُمَّ توقفت في المرحلة الإعدادية، ثُمَّ استأنفت نشاطي الكتابي في المرحلة الثانوية..

....

الأعمال الأدبية: كتاب نصوص أدبية وخواطر، نُشر ورقيًا في يناير **2020** وحتى الآن يتم توزيعه بداخل مصر وخارجها، بعنوان:

"قطوف من بستان قلبي" مع دار ببلومانيا للنشر والتوزيع.

رواية "متمردات" ، رواية "سمر الموتى" ، قصة "اغتصاب حلال" قصة "يوميات مواطن مطحون" قصة "القطة الخائنة" نُشروا إلكترونيًا والعديد من المقالات الأدبية على صفحتي الفيسبوكية.

[للتواصل مع الكاتبة]

رابط الصفحة الشخصية:

https://www.facebook.com/zahraa.darwesh2016

رابط الصفحة العامة:

https://www.facebook.com/zhraadarwesh

البريد الإلكتروني:

Totalolla0@gmai.com

رواية

الحالة 108

الزهراء درويش

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
1443 هـ 2022 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com